جمهورية مصر العربية

وزارة الأوقاف

حـديث الــروح

أ.د/ محمد مختار جمعة

وزير الأوقاف

رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

وعضو مجمع البحوث الإسلامية

١٤٣٩هـ /٢٠١٨م

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}

(هود: ٨٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه إلى يوم الدين.

وبعد :

فقد فكرت كثيرًا في أن أخرج كتابا حول بعض القيم والأخلاق والإنسانيات يكون زادًا للأئمة والخطباء والوعاظ والواعظات في دروسهم ودروسهن ، كما يكون زادًا لعامة المسلمين الحريصين على التزود بصحيح الدين ، ولا سيما في باب مكارم الأخلاق .

وبعد أن سجلت نحو ستين حلقة متتابعة للبرنامج الديني التليفزيوني التاريخي" حديث الروح " ، ذلكم البرنامج الذي يعد أحد أهم البرامج الدينية في الذاكرة المصرية وربما العربية والإسلامية ، لما يحظى به من عناية فائقة عبر تاريخ طويل من الزمن ، ولاستضافته كبار شيوخ الأزهر الشريف ووزراء الأوقاف والمفتين والعلماء والمفكرين وكبار أساتذة الجامعات مما جعله أحد أهم البرامج الدينية التي أثرت الحياة الفكرية الدينية والثقافية .. رأيت أن أحول بعض هذه الأحاديث التي أديتها متلفزة إلى مادة علمية مكتوبة ، وضممت إليها بعض المقالات التي نشرتها

في مختلف وسائل الإعلام المقروءة فيما يتصل بهذا الباب ، مؤملا أن أسهم في تقديم مادة دعوية وتثقيفية ميسرة حول قضايا القيم والأخلاق ، تعتمد أكثر ما تعتمد على الكتاب والسنة ، مع إضاءات لأهم المعاني المتصلة بالموضوع بما يسهم في ترسيخ هذه القيم في النفوس ، وتقوية الحس الإيماني ، وتزكية الروح ، في إطار المنهج الإسلامي السمح القائم على التوازن بين متطلبات الروح وحاجات الجسد ، بما يحقق السعادة للفرد والمجتمع في الدنيا بعمارة الكون وصنع الحضارة وصالح الإنسانية جمعاء ، وفي الآخرة بالفوز بفضل الله تعالى ورحمته ورضوانه .

وإني لأرجو أن أكون قد وفقت فيما قصدت ، والله من وراء القصد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

أ.د/ محمد مختار جمعة مبروك
وزير الأوقاف
رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
وعضو مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف

أركـــان الإســـلام وحقيقته

لقد حدد حديث جبريل (عليه السلام) أركان الإسلام والإيمان ومفهوم الإحسان ، فعن سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قال :"بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنْ الْإِسْلَامِ؟، فَقَالَ رَسُولُ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): الْإِسْلَامُ : أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، قَالَ : صَدَقْتَ ، قَالَ : فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ ، قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِيمَانِ ؟، قَالَ : أَنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ ، قَالَ: صَدَقْتَ ، قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِحْسَانِ؟، قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ السَّاعَةِ ؟ قَالَ : مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ ، قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا ؟ قَالَ : أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا ، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ ، قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنْ السَّائِلُ؟ قُلْتُ: الله وَرَسُولُهُ

أَعْلَمُ ، قَالَ : فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ" (صحيح مسلم).

فأول أركان الإسلام : الشهادتان ، شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، وثانيها : إقامة الصلاة ، وهو أداؤها في أوقاتها تامة كاملة غير منقوصة ، وثالثها : إيتاء الزكاة ، لمن امتلك نصابًا ، وهو تأكيد أن من لا يؤدي الزكاة مع امتلاكه النصاب كان في الحكم والإثم كمن ضيع الصلاة سواء بسواء .

والركن الرابع : صوم رمضان ، أما الحج وهو الركن الخامس فمن رحمة الله تعالى بنا أن جعله على المستطيع ماليًّا وبدنيًّا ، وجعل حج الفريضة مرة واحدة تخفيفًا وتيسيرًا على أمة النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فمن أدّى ذلك فقد أدّى ما افترضه الله عليه .

وقد سأل أحد الصحابة الكرام (رضوان الله عليهم) نبينا (صلى الله عليه وسلم) عَنِ الإِسْلاَمِ ، فَقَالَ رَسُولُ الله (صلى الله عليه وسلم) : " خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ "، فَقَالَ : هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا ؟ قَالَ : " لاَ ، إِلاَّ أَنْ تَطَوَّعَ "، قَالَ رَسُولُ الله (صلى الله عليه وسلم) : " وَصِيَامُ رَمَضَانَ"، قَالَ هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُ ؟ قَالَ : " لاَ ، إِلاَّ أَنْ تَطَوَّعَ " قَالَ : وَذَكَرَ لَهُ رَسُولُ الله (صلى الله عليه وسلم) الزَّكَاةَ ، قَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا ؟ قَالَ: " لاَ، إِلاَّ أَنْ تَطَوَّعَ " ، قَالَ: فَأَدْبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَقُولُ وَالله لاَ أَزِيدُ عَلَى هَذَا وَلاَ أَنْقُصُ ، قَالَ رَسُولُ

الله (صلى الله عليه وسلم) :" أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ" (رواه البخاري) ، وفي رواية: " إِنْ صَدَقَ دَخَلَ الْجَنَّةَ "(متفق عليه).

هذا من حيث الأداء ، أما من حيث ثمرة العبادات فإنها لا تكاد تتحقق إلا إذا هذّبت سلوك صاحبها ، فنهته الصلاة عن الفحشاء والمنكر ، ونهاه الصيام عن السباب والفسوق ، وطهّرت الزكاة نفسه من الشح والبخل ، ونهاه حجه عن الفسوق والعصيان ، فصار سلمًا للناس أجمعين ، فالمسلم الحقيقي هو من سَلِمَ الناس كل الناس من لسانه ويده ، فالإسلام دين الرحمة والسلام ، دين لا يعرف الأذى ، فالمسلم الحقيقي هو من سلم الناس من لسانه ويده ، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأعراضهم وأموالهم وأنفسهم ، ولما سئل نبينا (صلى الله عليه وسلم) عن امرأة صوامة قوامة غير أنها تؤذي جيرانها ، قال (صلى الله عليه وسلم) : "هي في النار" (مسند أحمد) ، وهو القائل (صلى الله عليه وسلم) : "والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن " قالوا : من يا رسول الله ؟ ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : "من لا يأمن جاره بوائقه"(صحيح مسلم) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلا يُؤذِ جَارَهُ " (صحيح مسلم).

دين يحفظ للإنسان كرامته ، فينهى عن الغيبة ، والنميمة ، والتحاسد ،

والتباغض ، والاحتقار ، وسوء الظن لهو دين عظيم ، وذلك حيث يقول الحق سبحانه : " يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ "(الحجرات:١١، ١٢)، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " لَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ الله إِخْوَانًا وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ" (متفق عليه) .

دين يمنع الظلم والغش ، ولو مع أعدائه ، ويحرم سائر الممارسات الاحتكارية ، ويعمل على تحقيق الرحمة للإنسان والحيوان والجماد لهو دين عظيم .

دين ينهى عن كل ألوان الفساد والإفساد والتدمير والتخريب ، ويعصم الأموال والأعراض والأنفس ، لهو دين عظيم ، وذلك حيث يقول الحق سبحانه : " وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا" (الأعراف: ٥٦) ،

ويقول عز وجل : " وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ " (البقرة : ٦٠) ، وحيث يقول سبحانه : " وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ " (البقرة :٢٠٤، ٢٠٦) ، وحيث نهى نبينا (صلى الله عليه وسلم) سيدنا معاذ بن جبل عن أي ظلم أو إجحاف بأموال المستضعفين أو أخذ كرائم أموالهم فقال له : "يا معاذ ، إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَأَنِّي رَسُولُ الله ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ الله افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ الله افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الله حِجَابٌ "(متفق عليه).

وأخيرًا نستطيع أن نقول : إن الإسلام قضية عادلة ودين عظيم ، وإنه وإن تعرض للهجوم من أعدائه فإن المخلصين من أبنائه قادرون بإذن الله (تعالى) على تجلية الغبار عنه ، وعرضه عرضًا صحيحًا من خلال البلاغ

الواضح المبين ، الفاهم لفقه المقاصد ، وفقه الواقع ، وفقه المتاح ، وفقه الأولويات ، فهمًا يؤهل صاحبه للوفاء بواجب هذا الدين العظيم ، بما يحمله لصالح الإنسانية جمعاء من سبل السعادة والرقي ، وما يحمله لمن يعمل به من خير الدارين : الدنيا والآخرة .

❊ ❊ ❊

حقيقة الإيمان وعلاماته

الإيمان كما عرفه حبيبنا محمد (صلى الله عليه وسلم) في حديث جبريل (عليه السلام) ، عندما سأل النبي (صلى الله عليه وسلم) عن الإيمان ، فأجابه (صلى الله عليه وسلم) بقوله: " أَنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ " (صحيح مسلم).

والإيمان بالله (عز وجل) يقتضي أن تؤمن بأنه واحد أحد " لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ " (سورة الإخلاص)، وأنه هو الخالق القابض الباسط المعز المذل ، " إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ " (يس: ٨٢).

وأن تدرك إدراكا لا يخالجه أي شك بأن الأمر كله لله ، و" أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله عَزَّ وَجَلَّ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ " (سنن الترمذي).

ومن أخص علامات الإيمان والثقة في الله : الصدق ، حتى قال بعضهم: الإيمان الحقيقي هو الذي يحملك على أن تقول الصدق مع ظنك أن الصدق قد يضرك ، وألا تقول الكذب مع ظنك أن الكذب قد ينفعك ، لعلمك أن

ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك .

ومن أهم علامات الإيمان : الرضا بما قسم الله ، وخشية الله في السر والعلن ، والاطمئنان بذكر الله ، وحب الله ورسوله ، وحب الخير للناس وحبهم في الله ولله ، حيث يقول الحق سبحانه : " ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ " (الرعد: ٢٨) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ" (متفق عليه) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ "، فقال سيدنا عمر (رضي الله عنه) : يَا رَسُولَ اللهِ لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلاَّ مِنْ نَفْسِي ، فَقَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (لاَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ) ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : فَإِنَّهُ الآنَ وَاللهِ لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي ، فَقَالَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم): (الآنَ يَا عُمَرُ) " (متفق عليه) .

على أن الحب بلا طاعة حب أجوف لا طائل ولا غناء منه ، فالحب الحقيقي هو الذي يؤدي إلى حسن الاتباع ، حيث يقول سبحانه على لسان نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ

ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ " (آل عمران: ٣١).

ويقول الشاعر :

تَعْصِي الإِله وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّـه
هـذا محالٌ في القيـاس بديـع
لَوْ كانَ حُبُّكَ صَادِقًا لأَطَعْتَـه
إنَّ المُحِبَّ لِمَـنْ يُحِـبُّ مُطِيـع
في كلِّ يـومٍ يبتـديـكَ بنعمـة
منهُ وأنتَ لشـكرِ ذاكَ مضيـع

ثم إن للإيمان وللمؤمنين علامات ، من أهمها :

ما ذكره الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز في قوله تعالى :" إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ " (الأنفال:٢- ٤) ، فالمؤمن تقي نقي ، يألف ويؤلف ، ليس بفظ ولا فاحش ولا غليظ ، خاشع لله ، مخبت إليه ، حيث يقول الحق سبحانه : " أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ " (الحديد: ١٦)، ويقول (عزّ وجل) :

"فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾" (الزمر: ٢٢)، مما يؤكد أن الظواهر التي تميل إلى القسوة والعنف والتطرف والإرهاب وسفك الدماء والتنكيل بالبشر لا علاقة لها بالإيمان ولا بالأديان، بل إن القرآن الكريم قد نص على ذلك صراحة في قوله تعالى: "وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا" (الفرقان: ٦٣).

إن المؤمن مصدر أمنٍ وأمان ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : "الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم"(متفق عليه)، ويقول (صلى الله عليه وسلم) :"وَاللهِ لاَ يُؤْمِنُ ، وَاللهِ لاَ يُؤْمِنُ، وَاللهِ لاَ يُؤْمِنُ" قِيلَ : مَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ :"الَّذِي لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ ،قِيلَ: وَمَا بَوَائِقُهُ ؟ قَالَ : شَرُّهُ" (صحيح البخاري)، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَان وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ بِهِ" (رواه الطبراني والبزار).

فالإيمان يربي صاحبه على الكف عن الأذى وعلى حب الخير للآخرين والإحساس بهم والعمل على إسعادهم ، فإذا كان الإيمان خيرًا كله ، فينبغي أن يكون المؤمن خيِّرًا يتحرك على الأرض لنفع الناس ، لا لإيذائهم أو الاستعلاء عليهم أو الإضرار بهم .

ومن أخص صفات المؤمنين الأمانة ، حيث يقول سبحانه وتعالى : "وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ " (المؤمنون: ٨) ، فقد ربط بين الإيمان والأمانة ، فالإيمان ، والأمن ، والأمان ، والأمانة ألفاظ ترجع في أصل اشتقاقها إلى مادة لغوية واحدة: هي مادة : (أَمِنَ) ، فحيث كان الإيمان كانت الأمانة وكان الأمن ، ولا إيمان لمن لا أمانة له ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) في ربط واضح بين الأمانة والإيمان : " لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ "(مسند أحمد) .

فأداء الأمانة والوفاء بالعهد ، هما أحد أهم جوانب التطبيق العملي لمفهوم الإيمان ، ونلاحظ أن النص القرآني هنا لم يذكر مجرد أداء الأمانة أو الوفاء بالعهد ، إنما تحدث عن رعاية ذلك وتعهده والعناية به كما يتعهد الوالد ولده أو الزارع زرعه ، حيث يقول الحق سبحانه :" إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ" (النساء: ٥٨) ، ويقول تعالى :" يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ " (المائدة :١) ، ويقول (عز وجل) : "وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا" (الإسراء : ٣٤) ، فالتزام القيم والأخلاق هو التطبيق العملي لمفهوم الإيمان والدليل على رسوخه وتمكنه من نفس صاحبه .

* * *

يقول الحق سبحانه وتعالى : " هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ " (الزمر : ٩) ويقول تعالى : " إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ " (فاطر :٢٨) ، ويقول (عز وجل) : "يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ " (المجادلة :١١) ، ويقول سبحانه : " فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ " (النحل : ٤٣) .

ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وإنما وَرَّثُوا الْعِلْمَ ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ" (سنن أبي داود) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " إِنَّمَا الدُّنْيَا لأَرْبَعَةِ نَفَرٍ عَبْدٍ رَزَقَهُ الله مَالاً وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِى فِيهِ رَبَّهُ وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ وَيَعْلَمُ لله فِيهِ حَقًّا فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ الله عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالاً فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ : لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلاَنٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ الله مَالاً وَلَمْ

يَرْزُقْهُ عِلْمًا فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لاَ يَتَّقِى فِيهِ رَبَّهُ ، وَلاَ يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ وَلاَ يَعْلَمُ لله فِيهِ حَقًّا ، فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ، وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ الله مَالاً وَلاَ عِلْمًا ، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلاَنٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ " (سنن الترمذي) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِيَ الله بِهِ مِنْ الْهُدَى وَالْعِلْمِ ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا ، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ ، قَبِلَتْ الْمَاءَ ، فَأَنْبَتَتْ الْكَلَأَ، وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ ، أَمْسَكَتْ الْمَاءَ ، فَنَفَعَ الله بِهَا النَّاسَ ، فَشَرِبُوا مِنْهَا ، وَسَقَوْا ، وَرَعَوْا ، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى ، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ ، لَا تُمْسِكُ مَاءً ، وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ الله ، وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِيَ الله بِهِ ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا ، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى الله الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ" (متفق عليه) .

على أن قيمة العلم إنما تشمل التفوق في كل العلوم التي تنفع الناس في شئون دينهم أو شئون دنياهم ، ولذا نرى أن قول الله (عز وجل) : " إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ "جاء في معرض الحديث عن العلوم الكونية ، حيث يقول سبحانه : " أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ

مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ " (فاطر : ٢٧ ، ٢٨) ، ويقول سبحانه :" إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ " (آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١) .

وقد قالوا : التعلم قبل التعبد ، ليكون التعبد على هدى ، وقال الحسن البصري (رحمه الله): العامل على غير علم كالسّالك على غير طريق ، والعامل على غير علم يفسد أكثر ممّا يصلح ، فاطلبوا العلم طلبا لا تضرّوا بالعبادة، واطلبوا العبادة طلبا لا تضرّوا بالعلم ، فإنّ قوما طلبوا العبادة وتركوا العلم حتّى خرجوا بأسيافهم على أمّة محمّد (صلّى الله عليه وسلّم) ، ولو طلبوا العلم لم يدلّهم على ما فعلوا .

فالعلم النافع هو الذي يكون سبيل هدى ورحمة ورشد لصاحبه في أمر دينه ودنياه ، ولذا رأينا سيدنا موسى (عليه السلام) يقول للعبد الصالح : "هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا " (الكهف : ٦٦) ، وقد قدم النص القرآني صفة الرحمة على صفة العلم حيث يقول الحق سبحانه:

"فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا" (الكهف:٦٥)، فالعلم ما لم يكن رحمة لصاحبه وللناس أجمعين فلا خير فيه.

كما أن المراد بالعلم النافع كل ما يحمل نفعًا للناس في شئون دينهم، وشئون دنياهم ، في العلوم الشرعية ، أو العربية ، أو علم الطب ، أو الصيدلة ، أو الفيزياء ، أو الكيمياء ، أو الفلك ، أو الهندسة ، أو الميكانيكا ، أو الطاقة ، وسائر العلوم والمعارف ، وأرى أن قوله تعالى :" هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ "، وقوله تعالى:" فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ "، أعم من أن نحصر أيًّا منهما أو نقصُـره على علم الشريعة وحده ، فالأمر متسع لكل علم نافع .

ومما لا شك فيه أننا في حاجة إلى جميع العلوم التي نعمر بها دنيانا كحاجتنا إلى العلوم التي يستقيم بها أمر ديننا ، ونخلصه بها من أباطيل وضلالات الجماعات الضالة المارقة .

* * *

□

الدعاء سلاح المؤمن

الدعاء ليس سلاح الضعفاء كما يتوهم البعض ، الدعاء سلاح الأقوياء الآخذين بالأسباب ، المؤمنين بأن الأسباب لا تؤدي إلى النتائج بطبيعتها ، إنما برحمة الله تعالى وعونه وسداده وإرادته وتوفيقه ، يقول الحق سبحانه: "وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ " (غافر :٦٠) ، ويقول سبحانه: "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ "(البقرة : ١٨٦). ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) :" مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو الله بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إثمٌ ، وَلَا قَطِيعَةُ رَحِمٍ إِلَّا أَعْطَاهُ بها إِحْدَى ثَلَاثٍ : إِمَّا أَنْ يعجل لَهُ دَعْوَتَهُ ، وإمّا أن يَدَّخِرَها لَهُ في الآخرة ، وإمّا أن يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا). قَالُوا : إِذًا نُكْثِرُ . قَالَ : (الله أَكْثَرُ)"(مسند أحمد) ، وسمع نبينا (صلى الله عليه وسلم) رجلا يقول : اللهمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّكَ أَنْتَ الله لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ، فَقَالَ رَسُولُ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : " لَقَدْ سَأَلْتَ الله بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ ، الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى ، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ" (مسند أحمد والبزار) ، ويقول

(صلى الله عليه وسلم) :" إِنَّ لله مَلَكًا مُوَكَّلا بِمَنْ يَقُولُ : يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، فَمَنْ قَالَهَا ثَلاثًا قَالَ الْمَلَكُ : إِنَّ أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ قَدْ أَقْبَلَ عَلَيْكَ فَاسْأَلْ" (المستدرك للحاكم).

وقال أحد الحكماء : عجبت لمن ابتلي بالمرض كيف يغفل عن دعوة أيوب (عليه السلام) : " أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ " ؟ (الأنبياء : ٨٣) ، ومن ابتلي بالضيق كيف يغفل عن دعوة يونس (عليه السلام) " لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ "؟ (الأنبياء : ٨٧) ، وعجبتُ لمن ابتُلي بخوفٍ كيف يغفل عن قول الله (عز وجل) : " حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ "؟(آل عمران : ١٧٣) ، وعجبتُ لمن ابتُلي بمكرِ الناس كيف يغفل عن قوله تعالى: " وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ "؟ (غافر : ٤٤).

وهذه دعوة إبراهيم (عليه السلام) لولده نرى بركتها إلى يوم القيامة ، حيث دعا ربه (عز وجل) فقال :" رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ "

(إبراهيم: ٣٧) ، وحيث دعا ربه (عز وجل) فقال :" رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ " (إبراهيم : ٣٥) ، وقال:" وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ" (البقرة :١٢٦) ، فاستجاب له ربه فجعل البلد آمنا والحرم آمنا والقلوب تهوي إليه من كل حدب وصوب إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وهذا نبي الله يوسف (عليه السلام) يدعو ربه فيقول: "رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ" (يوسف :٣٣) ، فيستجيب الله تعالى له :" فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ "(يوسف :٣٤) .

وهـذا نبي الله أيوب (عليه السلام) يدعو ربه فيقـول :" أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ " (الأنبياء : ٨٣) ، فتأتيه الإجابة : "فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ" (الأنبياء : ٨٤) .

وهذا نبي الله زكريا (عليه السلام) يدعو ربه فيقول: "رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا" (مريم:٤-٦)، فيستجيب له ربه (عز وجل) فيقول: "فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ" (الأنبياء : ٩٠).

فما أحوجنا إلى الدعاء المصحوب بالأمل لا باليأس ، ولا بالإحباط ، ولا بالقنوط من رحمة الله (عز وجل) ، وإذا أردنا استجابة للدعاء فإن لذلك شروطًا وآدابًا ، من أهمها : الإيمان ، وحسن الظن بالله تعالى، وطيب المطعم والمشرب والملبس ، فلما سأل سيدنا سعد بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ رَسُولَ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله ، ادْعُ الله أَنْ يَجْعَلَنِي مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ ، قَالَ لَهُ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) :" يَا سَعْدُ أَطِبْ مَطْعَمَكَ تَكُنْ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، إِنَّ الْعَبْدَ لَيَقْذِفُ اللُّقْمَةَ الْحَرَامَ فِي جَوْفِهِ مَا يُتَقَبَّلُ مِنْهُ عَمَلَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، وَأَيُّمَا عَبْدٍ نَبَتَ لَحْمُهُ مِنَ السُّحْتِ وَالرِّبَا فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ" (المعجم الأوسط للطبراني) .

حقيقــة الزهــد

يرتبط الزهد في أذهان البعض بجوانب شكلية لا علاقة لها بحقيقته ، وقد يتوهم بعض الناس خطأ أن الزهد رديف الفقر أو حتى الفقر المدقع، فالزاهد في تصور البعض شخص بالضرورة قليل المال ، وربما قليل الحيلة ، وربما رث الثياب أو مخرقها ، صوته لا يكاد يبين ، ويده لا تكاد تلامس مصافحها ، ثم تطور الأمر إلى سلبية أشد بهجر العمل ، وربما ترك الدراسة العلمية أو عدم الاكتراث بها ، والخروج من الدنيا بالكلية إلى عالم أقرب ما يكون إلى الخيالات الخاطئة منه إلى دنيا الواقع ، في تعطيل مقيت وغريب وعجيب وشاذ للأسباب ، مع أن ذلك كله شيء والزهد شيء آخر .

وقد قال أهل العلم : ليس الزاهد من لا مال عنده ، إنما الزاهد من لم تشغل الدنيا قلبه ولو ملك مثل ما ملك قارون ، وسئل الإمام أحمد بن حنبل (رحمه الله تعالى) : أيكون الرجل زاهدًا وعنده ألف دينار ؟ قال : نعم ، إذا كان لا يفرح إذا زادت ولا يحزن إذا نقصت ، ولذا كان من دعاء الصالحين : اللهم اجعل الدنيا في أيدينا لا في قلوبنا ، وعن أبي ذر الغفاري (رضي الله عنه) أن ناسًا من أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) قالوا : يَا رَسُولَ الله ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي ، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ ، قَالَ : أَوَ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ الله لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ

به ، إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً ، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً ، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً ، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ ، قَالُوا يَا رَسُولَ الله : أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ ، قَالَ أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ ، فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْر" (متفق عليه) ، فلما سابقهم الأغنياء في التسبيح والتهليل والتكبير ، وكلموا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في ذلك قال لهم (صلى الله عليه وسلم) : " ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم".

ما أجمل الدينَ وَالدُنيا إِذا اِجتَمَعا

وَأَقبَحَ الكُفرَ وَالإِفــلاسَ بِالرَّجُـل

ولا شك أن النظرة الخاطئة للزهد جرَّت إلى السلبية والاتكالية والبطالة والكسل والتواكل والتخلف عن ركب الأمم ، مع أن ديننا هو دين العمل والإنتاج والإتقان والأخذ بالأسباب ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : "لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى الله حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ ، تَغْدُو خِمَاصاً وَتَرُوحُ بِطَانا " (مسند أحمد) ، فهي تغدو وتروح ضربًا في الأرض وأخذًا بالأسباب.

وقـد جمـع القـرآن الكـريم بين من يضـربون في الأرض أخــذًا بالأسـباب

ومن يجاهدون في سبيله سبحانه ، فقال (عز وجل) : "عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ " (المزمل :٢٠)، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : "السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ وَالمِسْكِينِ، كَالمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ الله ، أَوِ القَائِمِ اللَّيْلَ الصَّائِمِ النَّهَارَ" (متفق عليه) ، ولما رأى أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) رجلاً قويًّا جلدًا ، ورأوا من جلده ونشاطه ما أعجبهم ، فقالوا : "يَا رَسُولَ الله ، لَوْ كَانَ هَذَا فِي سَبِيلِ الله ، فَقَالَ رَسُولُ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) :" إِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَارًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَفِي سَبِيلِ الله ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ لِيعِفَّهَا فَفِي سَبِيلِ الله ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَهْلِهِ فَفِي سَبِيلِ الله ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى تَفَاخُرًا وَتَكَاثُرًا فَفِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ" (المعجم الصغير للطبراني).

فالإسلام قائم على التوازن بين حاجة الروح وحاجة الجسد ، حيث يقول الحق سبحانه :" يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟

إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ " (الجمعة : ٩-١٠) ، وَكَانَ سيدنا عِرَاكُ بْنُ مَالِكٍ (رضي الله عنه) إِذَا صَلَّى الْجُمُعَةَ انْصَرَفَ فَوَقَفَ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ ، فَقَالَ : "اللهمَّ إِنِّي أَجَبْتُ دَعْوَتَكَ ، وَصَلَّيْتُ فَرِيضَتَكَ ، وَانْتَشَرْتُ كَمَا أَمَرْتَنِي ، فَارْزُقْنِي مِنْ فَضْلِكَ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ".

فالزهد الصحيح ليس قرينًا للفقر ، بل قد يكون قرين الغنى ، ليملك الإنسان ثم يزهد ، فهو زهد الغني ، وليس زهد المعدم ، كما أن الزهد لا يتنافى مع الأخذ بالأسباب ، فالأخذ بالأسباب شيء والزهد شيء آخر ، يتكاملان ولا يتناقضان ، وعندما قَالَ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) : "لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ" ، قَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ الله، إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً ، فقَالَ (صلى الله عليه وسلم) : " إِنَّ الله جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ" (صحيح مسلم).

* * *

قيمـــة الإيثـــار

الإيثار خلق من الأخلاق الكريمة التي تدل على المروءة ، والشهامة ، والنبل ، والإنسانية ، والرقي ، فديننا الحنيف يحثنا على الإيثار وسخاء النفس ، وينهانا عن كل ألوان الأثرة والأنانية ، وقد أثنى القرآن الكريم على الأنصار ووصفهم بهذا الخلق النبيل ، فقال سبحانه : "وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ " (الحشر : ٩) ، وأَتَى رَجُلٌ النَّبِيَّ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَبَعَثَ إِلَى نِسَائه ، فَقُلْنَ : مَا عِنْدَنَا إِلَّا الْمَاءُ ، فَقَالَ رَسُولُ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : "مَنْ يَضُمُّ هَذَا ، أَوْ يُضِيفُ هَذَا ؟ " فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ : أَنَا ، وَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى امْرَأَتِهِ ، فَقَالَ: أَكْرِمِي ضَيْفَ رَسُولِ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَقَالَتْ : مَا عِنْدَنَا إِلَّا قُوتُ الصِّبْيَانِ ! فَقَالَ : هَيِّئِي طَعَامَكِ ، وَأَصْبِحِي سِرَاجَكِ ، وَنَوِّمِي صِبْيَانَكِ إِذَا أَرَادُوا عَشَاءً ، فَهَيَّأَتْ طَعَامَهَا ، وَأَصْبَحَتْ سِرَاجَهَا ، وَنَوَّمَتْ صِبْيَانَهَا ، ثُمَّ قَامَتْ كَأَنَّهَا تُصْلِحُ السِّرَاجَ ، فَأَطْفَأَتْهُ ، فَجَعَلا يُرِيَانِهِ أَنَّهُمَا يَأْكُلانِ ، فَبَاتَا طَاوِيَيْنِ ، فَلَمَّا أَصْبَحَا غَدَا إِلَى رَسُولِ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَقَالَ : ضَحِكَ الله

اللَّيْلَةَ ، أَوْ عَجِبَ مِنْ فِعَالِكُمَا ، فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: " وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ "(صحيح البخاري).

وفي الصحيحين عن عائشة (رضي الله عنها) قالت : " جَاءَتني مِسْكِينَةٌ تَحْمِل ابْنَتَيْن لَهَا ، فَأَطعمتهَا ثَلاثَ تَمْرَاتٍ ، فَأَعطتْ كُلَّ وَاحدَةٍ مِنْهُمَا تَمْرَةً وَرفعتْ إِلى فِيها تَمْرةً لتَأْكُلهَا، فَاسْتَطعَمَتهَا ابْنَتَاهَا، فَشَقَّت التَّمْرَةَ الَّتي كَانَتْ تُريدُ أَنْ تأْكُلهَا بيْنهُمَا، فأَعْجبني شَأْنَها، فَذَكرْتُ الَّذي صنعَتْ لرسولِ اللهَّ (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم) فَقَالَ: " إنَّ اللهَّ قَدْ أَوْجَبَ لَهَا بِهَا الجنَّةَ ، أَو أَعْتقَها بِهَا مَن النَّارِ " (صحيح مسلم) .

وعن حذيفة العدوي أنه قال : " انْطَلَقْتُ يَوْمَ الْيَرْمُوكِ أَطْلُبُ ابْنَ عَمِّي ، وَمَعِي شَنَّةٌ مِنْ مَاءٍ ، وَإِنَاءٌ ، فَقُلْتُ : إِنْ كَانَ بِهِ رَمَقٌ سَقَيْتُهُ مِنَ الْمَاءِ ، وَمَسَحْتُ بِهِ وَجْهَهُ ، فَإِذَا أَنَا بِهِ يَنْشَغُ - أي : يمص بفيه - ، فَقُلْتُ لَهُ : أَسْقِيكَ ؟ فَأَشَارَ أَنْ نَعَمْ ، فَإِذَا رَجُلٌ ، يَقُولُ : آهِ ، فَأَشَارَ ابْنُ عَمِّي أَنِ انْطَلِقْ بِهِ إِلَيْهِ ، فَإِذَا هُوَ هِشَامُ بْنُ الْعَاصِ أَخُو عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ، فَأَتَيْتُهُ ، فَقُلْتُ : أَسْقِيكَ ؟ فَسَمِعَ آخَرَ ، يَقُولُ : آهِ ، فَأَشَارَ هِشَامٌ أَنِ انْطَلِقْ بِهِ إِلَيْهِ ، فَجِئْتُهُ فَإِذَا هُوَ قَدْ مَاتَ ، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى هِشَامٍ ، فَإِذَا هُوَ قَدْ مَاتَ ، ثُمَّ أَتَيْتُ ابْنَ عَمِّي ، فَإِذَا هُوَ قَدْ مَاتَ " (شعب الإيمان للبيهقي) .

وعن أنس بن مالك (رضي الله عنه) :" أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ قَدِمَ

الْمَدِينَةَ ، فَآخَى رَسُولُ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ الْأَنْصَارِيِّ ، فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ : أَيْ أَخِي ، أَنَا أَكْثَرُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَالًا، فَانْظُرْ شَطْرَ مَالِي ، فَخُذْهُ ، وَتَحْتِي امْرَأَتَانِ ، فَانْظُرْ أَيُّهُمَا أَعْجَبُ إِلَيْكَ حَتَّى أُطَلِّقَهَا ، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ : بَارَكَ الله لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ ، دُلُّونِي عَلَى السُّوقِ ، فَدَلُّوهُ عَلَى السُّوقِ ، فَذَهَبَ فَاشْتَرَى وَبَاعَ وَرَبِحَ" (مسند أحمد) ، وبارك الله له حتى صار من أكثر الناس مالاً وبركة .

ولما حضرت الوفاة سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قال لابنه عبد الله : " يا عبد الله بن عمر اذهب إلى أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) فقل : يقرأ عمر بن الخطاب عليك السلام ، ثم سلها أن أدفن مع صاحِبَيّ ، قالت : كُنْتُ أُرِيدُهُ لِنَفْسِي وَلَأُوثِرَنَّ بِهِ الْيَوْمَ عَلَى نَفْسِي" .

وأعلى درجات الإيثار هو إيثار ما عند الله تعالى على الدنيا وما فيها ، استجابة لقوله تعالى : " مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ " (النحل : ٩٦)، ومنه ما كان من أبي طلحة الأنصاري (رضي الله عنه) حيث كان الرجل أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخلٍ ، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد ، وكان (صلى الله عليه وسلم) يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب ، فلما أنزلت هذه الآية :" لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ " (آل عمران : ٩٢) قَامَ أَبُو طَلْحَةَ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله ، إِنَّ الله

تبارك وتعالى يَقُولُ : " لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ " (آل عمران : ٩٢) ، وَإِنَّ أَحَبَّ مَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لله أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ الله ، فَضَعْهَا يَا رَسُولَ الله حَيْثُ أَرَاكَ الله ، فَقَالَ رَسُولُ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : " بَخٍ ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ ، فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ : أَفْعَلُ يَا رَسُولَ الله : فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ ، وبَنِي عَمِّهِ" (صحيح البخاري) .

فما أحوجنا إلى العودة إلى ديننا وقيمنا والتحلي بهذه الأخلاق الكريمة .

* * *

قيمـــة العـــدل

العدل ميزان الله الذي وضعه للخلق ، ونصبه للحق ، فـلا تخالفه في ميزانه ، ولا تنازعه في سلطانه ، وقد قالوا : إن الله (عز وجل) ينصـر الدولة العادلة ولو كانت كافرة ، ولا ينصـر الدولة الظالمة ولو كانت مؤمنة ، وأن المُلْكَ قد يـدوم مع العـدل والكفـر ، ولا يـدوم مع الإسـلام والظلـم .

والعدل اسم من أسماء الله الحسنى ، فهو الحكم العدل ، وقد حرم ربنا (عز وجل) الظلم على نفسه فقال في الحديث القدسي : " يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا"(صحيح مسلم).

وأرسل سبحانه وتعالى رسله جميعًا بالحق والعدل ، حيث يقول سبحانه:"لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ " (الحديد :٢٥) ، ويقول سبحانه مخاطبًا نبينا (صلى الله عليه وسلم) :" فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ " (الشورى: ١٥).

وجعل سبحانه وتعالى العدل من الأمور الراسخة التي أجمعت عليها الشرائع السماوية ، حيث يقول سيدنا عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) في الوصايا العشر التي وردت في أواخر سورة الأنعام : إنها من الأمور المحكمات التي أجمعت عليها جميع الشرائع السماوية ، فلم تنسخ في أي ملة من الملل أو شريعة من الشرائع ، وفيها قوله تعالى: " وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ " (الأنعام: ١٥٢) ، فقد أمرنا سبحانه وتعالى بالعدل في الأقوال ، وفي الأفعال ، بالقسط بين الناس جميعًا ، في الرضا والغضب ، في القريب والبعيد ، في الصديق والعدو ، حيث يقول الحق سبحانه : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ۚ وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا " (النساء: ١٣٥) ، ويقول سبحانه : "وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ " (المائدة: ٨).

ولأهمية العدل كان الإمام العادل في مقدمة السبعة الذين يظلهم الله (عز وجل) في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ : الْإِمَامُ الْعَادِلُ ،

وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ الله، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي الله اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُه مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ"(متفق عليه).

على أن العدل الذي ننشده هو العدل على كل المستويات ، على مستوى الفرد ، وعلى مستوى المجتمع بكل أركانه ومؤسساته ، فالإنسان مطالب بالعدل بين أبنائه وفي أسرته وسائر جوانب حياته ، كما أن على كل مسئول على أي مستوى كان أن يعدل فيما ولاه الله إياه ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " مَا مِنْ رَجُلٍ يَلِي أَمْرَ عَشَرَةٍ فَمَا فَوْقَ ذَلِكَ إِلَّا أَتَى اللهَ مَغْلُولًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَدُهُ إِلَى عُنُقِهِ فَكَّهُ بِرُّهُ أَوْ أَوْبَقَهُ إِثْمُهُ "(مسند أحمد).

على أن تحقيق العدل الإداري بين المرءوسين وبين المتعاملين يعمق الولاء والانتماء الوطني ، أما ظلم الناس وتقديم الولاء على الكفاءة فيولد الاحتقـان المجتمعي ويضعف الولاء الوطني ، ويؤدي إلى الشقـاق المجتمعي.

وعاقبة الظلم هي الهلاك والدمار في الدنيا ، والسخط وسوء العاقبة يوم القيامة ، حيث يقول الحق سبحانه في شأن الظالمين :" فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا" (النمل : ٥٢)، ويقول سبحانه :"فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ

لَمْ نُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ " (القصص: ٥٨)، ويقول تعالى : "وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ " (يونس : ١٣).

أما في شأن الظالمين يوم القيامة ، فيقول سبحانه : " وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا " (الفرقان : ٢٧، ٢٨) ، ويقول سبحانه : " مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ " (غافر: ١٨) ، ويقول سبحانه : "يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ " (غافر : ٥٢) ، ويقول سبحانه :" إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا " (الكهف : ٢٩) ، وإذا كان الماء المغلي يشوه البطون فإن ماء جهنم من نظر إليه على بعد فإنه كما جاء في الآية الكريمة " يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ " ، جزاء وفاقا.

* * *

الحيـــاء خيـــر كلـــه

الحياء خلق ، الحياء سلوك ، الحياء خير كله ، الحياء شعبة من شعب الإيمان ، حيث يقول (صلى الله عليه وسلم) :" الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ ، أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً ، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ : لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ" (رواه مسلم) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلامِ النُّبُوَّةِ الأُولَى : إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ" (متفق عليه) ، ويقول (صلّى اللهّ عليه وسلّم) : "اسْتَحْيُوا مِنَ الله حَقَّ الْحَيَاءِ " قَالَ : قُلْنَا : يَا رَسُولَ الله ، إِنَّا لَنَسْتَحْيِي وَالْحَمْدُ لله، قَالَ : "لَيْسَ ذَاكَ وَلَكِنَّ الِاسْتِحْيَاءَ مِنَ الله حَقَّ الْحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى ، وَتَحْفَظَ الْبَطْنَ وَمَا حَوَى ، وَتَتَذَكَّرَ الْمَوْتَ وَالْبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيَا مِنَ الله حَقَّ الْحَيَاءِ"(سنن الترمذي) ، وعن سعيد بن زيد الأنصاريّ (رضي اللهّ عنه) أَنَّ رَجُلًا قَالَ : " يَا رَسُولَ الله ، أَوْصِنِي ، قَالَ : " أُوصِيكَ أَنْ تَسْتَحْيِيَ مِنَ الله عَزَّ وَجَلَّ كَمَا تَسْتَحْيِي رَجُلًا مِنْ صَالِحِي قَوْمِكَ " (المعجم الكبير)، وعن أشجّ عبد القيس أنّه قال: قَالَ لِي رَسُولُ الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): " إِنَّ فِيكَ خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ " قُلْتُ: مَا هُمَا؟ قَالَ: "الْحِلْمُ، وَالْحَيَاءُ " قُلْتُ : أَقَدِيمًا كَانَ فِيَّ أَمْ حَدِيثًا؟ قَالَ: " بَلْ قَدِيمًا " قُلْتُ : الْحَمْدُ لله الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا .(مسند أحمد) ، وعن أنس (رضي اللهّ عنه) قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : " إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا ، وَخُلُقُ الْإِسْلَامِ الْحَيَاءُ " (سنن ابن ماجه) ،

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي اللهّ عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : "الْحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَانِ ، وَالْإِيمَانُ فِي الْجَنَّةِ ، وَالْبَذَاءُ مِنَ الْجَفَاءِ، وَالْجَفَاءُ فِي النَّارِ" (مسند أحمد)، ويقول (صلّى اللهّ عليه وسلّم) : " مَا كَانَ الْفُحْشُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا شَانَهُ ، وَلَا كَانَ الْحَيَاءُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا زَانَهُ " (مسند أحمد) .

وكان سيدنا عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ (رِضْوَانُ الله عَلَيْهِ) يقول: " مَنْ قَلَّ حَيَاؤُهُ قَلَّ وَرَعُهُ، وَمَنْ قَلَّ وَرَعُهُ مَاتَ قَلْبُهُ "، وكان ابن مسعود (رضي الله عنه) يقول: "مَنْ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ النَّاسِ ، لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الله "، وعن إِيَاس بْن مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ ، قَالَ : كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَذُكِرَ عِنْدَهُ الْحَيَاءُ ، فَقَالَ: الْحَيَاءُ مِنَ الدِّينِ ، وكان الْحَسَنَ البصري يَقُولُ:" الْحَيَاءُ وَالتَّكَرُّمُ خَصْلَتَانِ مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ لَمْ يَكُونَا فِي عَبْدٍ إِلَّا رَفَعَهُ الله عَزَّ وَجَلَّ بِهِمَا "، وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ : "منِ اسْتَحْيَا مِنَ الله مُطِيعًا اسْتَحْيَا الله مِنْهُ وَهُوَ مُذْنِبٌ"، وذكر ابن عبد البرّ عن سيدنا سليمان (عليه السّلام) أنه كان يقول: الحياء نظام الإيمان، فإذا انحلّ النّظام ذهب ما فيه ، وعن معبد الجهنيّ أنه قال في قوله تعالى : "وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ"(الأعراف: ٢٦) ، قال: لباس التّقوى الحياء، وقال الحسن : أربع من كنّ فيه كان كاملا ، ومن تعلّق بواحدة منهنّ كان من صالحي قومه : دين يرشده ، وعقل يسدّده ، وحسب يصونه ، وحياء يقوده ، وقال الأصمعيّ : سمعت أعرابيًّا يقول : من كساه الحياء ثوبه لم ير النّاس عيبه ، وعن عائشة (رضي اللهّ عنها) قالت :" إِنَّ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ عَشَرَةٌ : صِدْقُ الْحَدِيثِ ، وَصِدْقُ الْبَأْسِ فِي طَاعَةِ الله ، وَإِعْطَاءُ السَّائِلِ،

وَمُكَافَأَةُ الصَّنِيعِ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ ، وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ ، وَالتَّذَمُّمُ لِلْجَارِ ، وَالتَّذَمُّمُ لِلصَّاحِبِ، وَقِرَى الضَّيْفِ ، وَرَأْسُهُنَّ الْحَيَاءُ " .

وكان الشافعي (رحمه الله) يقول :

إذا لم تخشَ عاقبَـــةَ اللّيَالـــي
ولم تَسْـتحِ فاصنَـع ما تشَـــاء
فلا واللهّ ما فِـي العَيْـشِ خيْـر
ولا الدّنيا إذا ذهَـــبَ الحيَـــاء
يَعِيشُ المرءُ ما استحْيَـا بِخَيْـر
ويَبقَى العُودُ مـا بَقِــيَ اللِّحَـاء

وعن ابن الأعرابيّ : أنّ بعض العرب كان يقول :

إنّي كأنّي أَرَى مَن لا حَيَـــاءَ لَه
ولا أَمَانَةَ وسْـطَ القَومِ عُريَانـــا

ويقول الآخر :

إذا قلَّ ماءُ الوجهِ قـلَّ حيـــاؤه
فلا خيرَ في وجهٍ إذا قلَّ مـــاؤه
حياءَك فاحفظْـه عليــك فإنَّمـا
يدلُّ على فضلِ الكريمِ حيـــاؤه

فما أحوجنا إلى التخلق بهذا الخلق الذي لا يكون في شيء إلا زانه ، ولا ينزع من شيء إلا شانه ، حياء من الله تعالى باتباع أوامره واجتناب نواهيه ، وحياء من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) باتباع سنته ، وحياء من الخلق بألا يظهر الإنسان أمامهم صغيرًا في أعينهم ، أو ينتزع ما في أيديهم بسيف الحياء ، وقد قالوا : ما أخذ بسيف الحياء فهو حرام ، وحياء من النفس بحملها على ما يزين ، وكفها عما يشين .

* * *

الصبر الجميل

تحدث القرآن الكريم عن الصبر الجميل ، والصفح الجميل ، والهجر الجميل ، والسراح الجميل، والصبر الجميل هو الذي لا ضجر معه ، يقول الحق سبحانه على لسان سيدنا يعقوب (عليه السلام) : " فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ " (يوسف : ١٨) ، والصفح الجميل هو الذي لا عتاب معه ، حيث يقول الحق سبحانه مخاطبًا نبينا (صلى الله عليه وسلم) : "فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ " (الحجر : ٨٥) ، والهجر الجميل هو الذي لا أذى معه ، حيث يقول الحق سبحانه : " وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا " (المزمل : ١٠) ، والسراح الجميل هو الذي لا عضل ولا ظلم للمرأة معه ، حيث يقول الحق سبحانه :" وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا " (الأحزاب : ٤٩) .

وكما تحدث القرآن الكريم عن الصبر تحدث عن المصابرة ، فقال سبحانه : " يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ " (آل عمران : ٢٠٠) ، والمصابرة مفاعلة تقع بين طرفين وفيها مقاومة ، والمعنى : واجهوا صبر عدوكم بصبر يغلب

صبره ، حيث يقول الحق سبحانه :" إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا " (النساء : ١٠٤) ، ومن معاني المصابرة – أيضًا– : غالبوا صبر الشيطان على محاولات إغوائكم بصبر في طاعة الله يغلب صبره على إغوائكم .

على أن عاقبة الصبر عافية في الدنيا ورحمة ورضا من الله (عز وجل) في الآخرة ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى :" إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ " ، ويقول سبحانه : " وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ " (البقرة : ١٥٥–١٥٧) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ ، وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حُزْنٍ وَلاَ أَذًى وَلاَ غَمٍّ ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا ، إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ " (رواه البخاري) .

ويقول (صلى الله عليه وسلم) : "عَجَبًا لأمرِ المؤمنِ إِنَّ أمْرَه كُلَّهُ لهُ خَيرٌ وليسَ ذلكَ لأحَدٍ إلا للمُؤْمنِ إِنْ أصَابتهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فكانتْ خَيرًا لهُ وإِنْ أصَابتهُ ضَرَّاءُ صَبرَ فكانتْ خَيرًا لهُ " (رواه مسلم).

وعن أبي مالك الأشعري (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم) :" الطّهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن- أو تملأ- ما بين السّموات والأرض ، والصّلاة نور ، والصّدقة برهان ، والصّبر ضياء ، والقرآن حجّة لك أو عليك ، كلّ النّاس يغدو ، فبايع نفسه فمعتقها أو موبقها " (رواه مسلم) .

والصبر سبيل التمكين حيث يقول الحق سبحانه : " وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ " (السجدة : ٢٤) ، وهو طريق المؤمنين الصادقين ، حيث يقول الحق سبحانه : " الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ " (العنكبوت : ٢-٣) ، ويقول سبحانه : " أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ " (آل عمران : ١٤٢)، ويقول سبحانه : " أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ " (البقرة : ٢١٤).

ومن أهم ألوان الصبر : الصبر على البلاء ، فقد سُئِلَ رَسُولُ الله

(صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاءً ؟ قَالَ : " الأَنْبِيَاءُ ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ ، يُبْتَلَى النَّاسُ عَلَى قَدْرِ دِينِهِمْ ، فَمَنْ ثَخُنَ دِينُهُ ، اشْتَدَّ بَلاؤُهُ ، وَمَنْ ضَعُفَ دِينُهُ ضَعُفَ بَلاؤُهُ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لِيُصِيبَهُ الْبَلاءُ حَتَّى يَمْشِيَ فِي النَّاسِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ " (صحيح ابن حبان) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : "مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً هُوَ خَيْرٌ مِنَ الصَّبْرِ " (رَوَاهُ مُسْلِمٌ) ، وقال (صلى الله عليه وسلم) :" إِذَا أَحَبَّ الله قَوْمًا ابْتَلاهُمْ ، فَمَنْ صَبَرَ فَلَهُ الصَّبْرُ ، وَمَنْ جَزِعَ فَلَهُ الْجَزَعُ " (مسند أحمد) ، وفي رواية : " فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا ، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ " (سنن الترمذي).

وعن أبي موسى الأشعريّ (رضي الله عنه) أنّ رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم) قال : " إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ ، قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ لِمَلائِكَتِهِ : "قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي ؟ ، فَيَقُولُونَ : نَعَمْ ، فَيَقُولُ : قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي ؟ فَيَقُولُونَ : نَعَمْ، فَيَقُولُ : قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ ؟ فَيَقُولُونَ : نَعَمْ ، فَيَقُولُ : مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ : حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ ، فَيَقُولُ : ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ " (رواه الترمذي) ، وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أنّ رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم) قال : " يقول الله تعالى: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيّه من أهل الدّنيا ثمّ احتسبه إلّا الجنّة" (رواه البخاري) ، وعن أمّ سلمة (رضي الله عنها) أنّها قالت : سمعت رسول الله

(صلّى الله عليه وسلّم) يقول :" مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ الله " إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ " (البقرة : ١٥٦) ، اللهمَّ أْجِرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلُفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا ، لَّا أَخْلَفَ الله لَهُ خَيْرًا مِنْهَا " (رواه مسلم) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " مَا يَزَالُ البَلاَءُ بالمُؤمِنِ وَالمُؤْمِنَةِ فِي نفسِهِ ووَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى الله تَعَالَى وَمَا عَلَيهِ خَطِيئَةٌ " (رواه الترمذي) .

على أن من علامة قوة الصبر وتأصله في نفس الإنسان : مدى قدرته على تحمل الصدمات وامتصاصها أول وقوعها ، فقد مَرَّ رَسُولُ الله (صلى الله عليه وسلم) بِامْرَأَةٍ عِنْدَ قَبْرٍ وَهِيَ تَبْكِي فقَالَ لَهَا : (اتَّقِى الله وَاصْبِرِي). فَقَالَتْ : إِلَيْكَ عَنِّى فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبْ بِمُصِيبَتِي- قَالَ- وَلَمْ تَعْرِفْهُ ، فَقِيلَ لَهَا رَسُولُ الله (صلى الله عليه وسلم) فَأَخَذَهَا مِثْلُ الْمَوْتِ فَأَتَتْ بَابَ رَسُولِ الله (صلى الله عليه وسلم) فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابِينَ فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ الله إِنِّي لَمْ أَعْرِفْكَ ، فقَالَ رَسُولُ الله (صلى الله عليه وسلم) : " إِنَّ الصَّبْرَ عِنْدَ أَوَّلِ الصَّدْمَةِ " (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ).

* * *

الحق والواجب

لا شك أن مبدأ الحق والواجب ، أو الحق مقابل الواجب ، أحد أهم المبادئ العادلة التي تسهم في إصلاح المجتمع ، فهناك الحقوق والواجبات المتبادلة بين الآباء والأبناء، وبين الأزواج ، وبين الجيران ، وبين الأصدقاء ، وبين الشركاء ، وبين المواطن والدولة ، وبين العمال وأرباب العمل ، وبين المعلم والمتعلم .

وقد أشارت بعض النصوص القرآنية والنبوية إلى هذه التبادلية ، وإلى ضرورة الوفاء بالحقوق والواجبات معا ، حيث يقول الحق سبحانه في العلاقة بين الزوجين :" وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ " (البقرة : ٢٢٨) ، ويقول سبحانه في الحديث القدسي: " ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ " (صحيح البخاري) .

وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ (رضي الله عنه) قَالَ: " كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلاَّ مُؤَخِّرَة الرَّحْلِ فَقَالَ: يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ الله وَسَعْدَيْكَ ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ ، قُلْتُ : لَبَّيْكَ رَسُولَ الله وَسَعْدَيْكَ . ثُمَّ سَارَ سَاعَةَ ، ثُمَّ قَالَ: (يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ) ، قُلْتُ لَبَّيْكَ رَسُولَ الله وَسَعْدَيْكَ. قَالَ: هَلْ تَدْرِى مَا حَقُّ الله عَلَى الْعِبَادِ ؟ .

قَالَ : قُلْتُ : الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: فَإِنَّ حَقَّ الله عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا). ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ الله وَسَعْدَيْكَ ، قَالَ: هَلْ تَدْرِى مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى الله إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟. قَالَ: قُلْتُ الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: " أَنْ لاَ يُعَذِّبَهُمْ" (متفق عليه) .

وعن سيدنا علي (رضي الله عنه) أنه قال في خطبة له خطبها بصفين: "أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ جَعَلَ الله سُبْحَانَهُ لِي عَلَيْكُمْ حَقًّا بِوِلاَيَةِ أَمْرِكُمْ ، وَلَكُمْ عَلَيَّ مِنَ اَلْحَقِّ مِثْلُ اَلَّذِي لِي عَلَيْكُمْ ، وَاَلْحَقُّ أَوْسَعُ اَلْأَشْيَاءِ فِي اَلتَّوَاصُفِ وَأَضْيَقُهَا فِي اَلتَّنَاصُفِ ، لاَ يَجْرِي لِأَحَدٍ إِلاَّ جَرَى عَلَيْهِ ، وَلاَ يَجْرِي عَلَيْهِ إِلاَّ جَرَى لَهُ ، وَلَوْ كَانَ لِأَحَدٍ أَنْ يَجْرِيَ لَهُ وَلاَ يَجْرِيَ عَلَيْهِ لَكَانَ ذَلِكَ خَالِصاً لله سُبْحَانَهُ ".

ورأي بعض الناس رجلا مسنًّا يزرع نخلة لا ينتظر أن يجني شيئًا من ثمارها في حياته ، فقيل له : وهل تنتظر أن تدرك جني شيء من ثمارها؟ فقال الرجل : زرع من قبلنا فحصدنا ، ونحن نزرع ليحصد من بعدنا ، " افعل ما شئت كما تدين تدان".

والقاعدة : أن من أخذ الأجر حاسبه الله على العمل ، وأن العقد شريعة المتعاقدين ، وقد أمرنا رب العزة بالوفاء بالعقود ، فقال سبحانه : "يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ "(المائدة :١)، وحذرنا سبحانه من خيانة الأمانات في العمل أو في غيره ، فقال تعالى : " يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ

ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ " (الأنفال : ٢٧) ، وحثنا نبينا (صلى الله عليه وسلم) على إتقان العمل ، فقال :" إِنَّ الله يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلا أَنْ يُتْقِنَهُ " (شعب الإيمان للبيهقي) .

وديننا قائم على الإتقان ، والإحسان ، ومراقبة الله (عز وجل) في السر والعلن قبل مراقبة الخلق ، لأن الخلق إن غفلوا عن المراقبة أو المتابعة ، فهناك من لا يغفل ولا تأخذه سنة ولا نوم ، حيث يقول سبحانه : " ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ " (البقرة : ٢٥٥) ، ويقول (عز وجل) " مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ " (المجادلة : ٧) ، ويقول سبحانه: " وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ " (الأنعام : ٥٩) ، ويقول على لسان لقمان (عليه السلام) مخاطبًا ولده :" يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ

لَطِيفٌ خَبِيرٌ " (لقمان : ١٦) .

فما أحوجنا إلى ترسيخ مبدأ الحق مقابل الواجب في كل مجالات حياتنا وعلاقاتنا ، وبخاصة في مجال العمل ، إذ لا يمكن للحياة ولا العلاقات أن تستقيم من جانب واحد ، فيكون أحد الشقين معتدلا والآخر مائلا ، إنما تستقيم الأمور باستواء الجانبين معا ، والوفاء بالحقوق والواجبات معا ، نؤدي الذي علينا حتى يبارك الله (عز وجل) في الذي لنا .

* * *

حق الوالدين

عندما ننظر في كتاب الله (عز وجل) وفي سنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) نرى كيف تكون العلاقة المثلى بين الأبناء وآبائهم ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى : " وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا " (الإسراء : ٢٣-٢٤) ، ويقول النبي (صلى الله عليه وسلم) عندما سأله أحد الناس : أي العمل أحب إلى الله؟ قال: " الصَّلاَةُ عَلَى وَقْتِهَا"، قال : ثم أي؟ قال (صلى الله عليه وسلم): "بِرُّ الْوَالِدَيْنِ"، قال : ثم أي ؟ قال (صلى الله عليه وسلم) : "الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله" (متفق عليه).

انظر إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) كيف قدم برّ الوالدين على الجهاد في سبيل الله ، وعندما جاء أحد الشباب يستأذنه (صلى الله عليه وسلم) في الجهاد ، قال له سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " أَحَيٌّ وَالِدَاكَ؟" قال: نعم ، قال :" فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ" (متفق عليه) ، وجاء أحد الناس إليه (صلى الله عليه وسلم) فقال : يا رسول الله ، إني أصبت ذنبًا عظيمًا ، فهل لي من توبة ؟ قال : "هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ ؟" قال : لا ، قال : "هَلْ

لَكَ مِنْ خَالَةٍ؟" قال : نعم ، قال : " فبرها " (سنن الترمذي) ، فانظر إلى برّ الخالة ، فضلا عن برّ الأم كيف يكون وسيلة للتوبة والمغفرة وحسن المثوبة والعاقبة ؟.

أما العقوق فنعوذ بالله منه ، حيث يقول النبي (صلى الله عليه وسلم) في شأنه : " أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟" ثلاثًا ، قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : "الإِشْرَاكُ بالله ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ" وجلس وكان متكئًا ، فقال :" أَلا وَقَوْلُ الزّورِ" قال : فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت" (صحيح البخاري) .

ويقول الحق سبحانه:" وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا" (النساء: ٣٦) ، ويقول (عز وجل) : "وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا " (العنكبوت : ٨) ، ويقول سبحانه : "وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ " (لقمان : ١٤) ، وكان سيدنا عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) يقول : ثلاث في القرآن نزلت مقترنة بثلاث ، لا تقبل واحدة منها دون الأخرى: فأما الأولى فقول الله تعالى: " وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ " (المائدة :٩٢) ، فلا تقبل طاعة الله إلا بطاعة رسوله " مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ" (النساء :٨٠) ، وأما الثانية فقوله

تعالى: "فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ "(الحج :٧٨) ؛ ولذا قاتل سيدنا أبو بكر (رضي الله عنه) مانعي الزكاة ، وقال : "والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) لقاتلتهم عليه ، والله لا أفرق بين الصلاة والزكاة " (متفق عليه) ، وأما الثالثة فهي قوله تعالى : " أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ " (لقمان : ١٤)، فلم يشكر الله من لم يشكر لوالديه ، فمن عقّ والديه لم يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَاقٌّ ، وَلاَ مَنَّانٌ " (مسند أحمد) .

وقد يرى بعض الشباب أنه أكثر تدينًا من والده ، فيغلظ له القول أو يسيء معاملته، فنقول لأمثال هؤلاء : انظر يا بني إلى قول الحق (سبحانه وتعالى) في شأن الوالدين : "وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ " (لقمان : ١٥) ، فالوالدان حتى مع كفرهما أو حتى حال محاولتهما أن يحملاك على معصية الله أو حتى على الكفر ، فلا تطعهما في ذلك ، غير أن ذلك لا يخوّل لك سوء معاملة أيّ منهما ، إنما يجب أن تكون في جميع أحوالك كما أمرك الحق سبحانه "وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ".

على أن ندرك أن ذلك ليس تفضلا منك إنما هو حق وواجب عليك

تأثم إن قصرت فيه أو لم تقم به ، وعليك أن تدرك أن عقوق الوالدين مما يجعل له العقوبة في الدنيا مع ما فيه من غضب الله (عز وجل) في الآخرة .

ويروى أن أحد الناس صنع لوالده إناء خشبيًّا فسأله أصغر أبنائه يا أبي لم صنعت هذا الإناء الخشبي ؟ قال : يا بني لنضع فيه الطعام لجدك الذي كبر حتى لا ينكسر ، فقال الولد : حسنا يا أبتاه ، سنضع لك فيه الطعام عندما تكون مثل جدي ، فافعل ما شئت كما تدين تدان .

❊ ❊ ❊

حـــق الجـــوار

الجار له حق حتى في اللغة ، فعلماء النحو والصرف يذكرون أن أنواع الجر أربعة ، هي : الجر بالحرف ، والجر بالإضافة ، والجر بالتبعية ، والجر على الجوار ، ويمثلون له بقولهم : هذا جحر ضب خرب ، بجر كلمة خرب على الجوار ، ذلك أن الخراب للجحر لا للضب ، وله أمثلة أخرى كثيرة حتى أفرد بعضهم بحثًا أو بحوثًا للجر على الجوار ، وعلى الجملة فأنواع الجر الأربعة فيها جوار ما .

والجوار متسع كبير للجار : في المنزل ، والجار في العمل ، والجار في الدول ، والصاحب بالجنب وهو الجار في السفر ، يقول الحق سبحانه :

"وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا " (النساء :٣٦).

وفي حق الجار وشأنه يقول سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : "مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ "(صحيح البخاري) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " وَالله لا يُؤْمِنُ، وَالله لا يُؤْمِنُ"، قِيلَ : مَنْ

يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ :" الَّذِي لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ " (صحيح البخاري)، أي الذي لا يأمن جاره شره .

وعندما جاء بعض الناس إلى سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وذكروا له أن فلانة صوّامة قوّامة ، تصوم النهار وتقوم الليل إلا أنها تؤذي جيرانها بلسانها ، قال (صلى الله عليه وسلم) : " هِيَ فِي النَّارِ " (مسند أحمد) ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : "خَيْرُ الْأَصْحَابِ عِنْدَ الله خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ ، وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ الله خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ" (سنن الترمذي) ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : " مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ"(متفق عليه).

ومن بيان حسن أدب الإسلام في التعامل مع الجار وبيان حقه على جاره قول النبي (صلى الله عليه وسلم) : " وَإِذَا اشْتَرَيْتَ فَاكِهَةً فَأَهْدِ لَه ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَأَدْخِلْهَا سِرًّا "، لا أن تتباهى بها أمامه أو أن تستعلي بقدراتك وإمكاناتك المادية عليه .

ثم انظر إلى أدب الإسلام وقمة رقيِّه في العبارة التالية " وَلَا يَخْرُجْ بِهَا وَلَدُكَ لِيَغِيظَ بِهَا وَلَدَهُ " أي علّم ولدك الأدب فلا يخرج بها ليغيظ ولد جارك ، لأن الولد قد يخرج فيراه ابن جارك الذي لا يستطيع أن يشتري له والده مثل ما اشتريت لولدك ، فيتقطع قلب الولد وقلب الوالد مع ولده ،

فتحدث الشحناء والبغضاء بين الجيران بسبب الغيرة والتحاسد "وَإِذَا اشْتَرَيْتَ فَاكِهَةً فَأَهْدِ لَهُ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَأَدْخِلْهَا سِرًّا ، وَلا يَخْرُجْ بِهَا وَلَدُكَ لِيَغِيظَ بِهِ وَلَدَهُ وَلا تُؤْذِهِ بِقُتَارِ قِدْرِكَ إِلا أَنْ تَغْرِفَ لَهُ مِنْهَا " (شعب الإيمان للبيهقي) أي لا تؤذه برائحة الطبخ ، وخاصة إن كان شيئًا نفَّاذ الرائحة فأغلق النوافذ جيدًا حتى لا تؤذي الجيران ، إلا إذا كنت عازما على أن تطعمه وأهله منها ، وكان سيدنا أبو الدرداء (رضي الله عنه) يقول لزوجه : إذا طهيتِ طعامًا فأكثري المرق حتى نرسل لجيراننا منه ، وكان سيدنا عبد الله بن عمر بن الخطاب (رضي الله عنهما) إذا ذبح شاة قال : أرسلوا لجارنا اليهودي منها ، حيث إن النبي (صلى الله عليه وسلم) قد أوصانا بحسن الجوار على إطلاقه ، ومعاملة جميع الجيران بما يستوجبه حق الجوار .

فمن حق الجار عليك أنه إذا مرض عدته ، وإن أصابه خير هنأته ، وإن أصابته مصيبة عزيته ، وإن استعان بك أعنته ، وإذا استغاث بك أغثته ، وأن تكف عنه الشر لا أن تؤذيه أنت بأي لون من ألوان الشر قولا أو فعلاً ، مع ضرورة مراعاة أعلى درجات المروءة معه ، وقد جعل سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) شهادة الجار لجاره أو عليه من أعلى درجات التزكية أو الجرح ؛ لأن الإنسان وإن خدع بعض الناس بعض الوقت فإنه لا يمكن أن يخدع جيرانه كل الوقت .

وعندما جاء أحد الجيران لسيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : يا رسول الله دلَّني على عمل يدخلني الجنة ، قال له النبي (صلى الله عليه وسلم) :" كُنَّ مُحْسِنًا " قال : وكيف أعرف أني محسن ؟ فقال: " سَلْ جِيرَانَكَ، فَإِنْ قَالُوا : إِنَّكَ مُحْسِنٌ فَأَنْتَ مُحْسِنٌ ، وَإِنَّ قَالُوا: إِنَّكَ مُسِيءٌ فَأَنْتَ مُسِيءٌ " (المستدرك للحاكم) ، وكانت العرب قديمًا تعرف حق الجيران ، وفي أمثالهم "جار كجار أبي دؤاد"، كان هذا الرجل من خيرة الجيران لجيرانه ، كان إذا مات أحد جيرانه وداه أي دفع لأهله ما يعادل دية رجل ، وإذا فُقد لجاره شيء أخلفه عليه من ماله .

ويروى أن أحد الصالحين كان له جار أصابته فاقة فباع بيته ، فمر جاره فسمع صوت بكاء أبنائه لفراق بيتهم ، فلما علم جاره الصالح اشترى البيت وأعاده إلى جاره وترك له المال .

هذا هو الجوار في الإسلام ، وهذه هي عناية الإسلام بالجار ، لو أن الناس تعاملوا بهذا المبدأ وتعاملوا بهذه الأخلاق لما كان هناك خلاف ولا شحناء ولا مشاجرات ، أما أن يتعمد الإنسان إيذاء جاره ، أو حتى أن يؤذيه دون قصد ، قولاً أو فعلاً ، فليس هذا من خلق الإسلام في شيء ، مع تأكيدنا أن حق الجوار فيما بين الدول لا يقل شأنًا ، بل يزيد عن حق الجوار بين الأفراد ، لما يترتب على إساءة حق الجوار بين الدول من مفاسد خطيرة ، وعلى حسن الجوار من منافع عظيمة .

□

حـال أهـل الجنـة

لقد عرف الصحابة الكرام والتابعون من بعدهم وأهل العلم حقيقة الجنة فعملوا لها ، فعن أنس (رضي الله عنه) : أَنَّ أُمَّ الرُّبيعِ بنتَ البَرَاءِ وهي أُمُّ حَارِثة بن سُرَاقَةَ ، أَتَتِ النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فَقَالَتْ : يَا رسولَ الله ، أَلاَ تُحَدِّثُنِي عَنْ حَارِثَةَ - وَكَانَ قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ - فَإِنْ كَانَ فِي الجَنَّةِ صَبَرْتُ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ اجْتَهَدْتُ عَلَيْهِ فِي البُكَاءِ ، فَقَالَ: " يَا أُمَّ حَارِثَةَ إِنَّهَا جِنَانٌ فِي الجَنَّةِ ، وَإِنَّ ابْنَكِ أصابَ الفِرْدَوْسَ الأَعْلَى" (صحيح البخاري).

وعندما قال النبي (صلى الله عليه وسلم) يوم بدر : "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا يُقَاتِلُهُمُ الْيَوْمَ رَجُلٌ فَيُقْتَلُ صَابِرًا مُحْتَسِبًا مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ إِلا أَدْخَلَهُ الله الْجَنَّةَ " قَالَ عُمَيْرُ بْنُ الْحَمَامِ أَخُو بَنِي سَلَمَةَ وَفِي يَدِهِ تُمَيْرَاتٌ يَأْكُلُهُنَّ : بَخٍ بَخٍ ، فَمَا بَيْنِي وَبَيْنَ أَنْ أَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلا أَنْ يَقْتُلَنِي هَؤُلاءِ ، ثُمَّ قَذَفَ التُّمَيْرَاتِ مِنْ يَدِهِ وَأَخَذَ سَيْفَهُ وَقَاتَلَ الْقَوْمَ حَتَّى قُتِلَ (رَضِيَ الله عَنْهُ) " (سيرة ابن هشام)، ذلك كما تمنى ، وتحقيقًا لإرادة الله سبحانه وتعالى .

والجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطـر على قلب بشـر ، فهي كما يقول الحق سبحانه :" مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى

ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ " (الرعد : ٣٥)، ويقول سبحانه : " مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ" (محمد : ١٥) ، ويقول سبحانه : " كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ" (البقرة : ٢٥) .

ومن إكرام الله تعالى لأهل الجنة أنهم يشربون عند الحوض من يد الحبيب (صلى الله عليه وسلم) شربة لا يظمأون بعدها أبدًا ، فعن عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما) أنه قال : قَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : "حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ وَزَوَايَاهُ سَوَاءٌ مَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنْ اللَّبَنِ وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنْ الْمِسْكِ وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ مَنْ شَرِبَ مِنْهَا فَلَا يَظْمَأُ أَبدا " (صحيح البخاري).

وأهل الجنة تأتيهم البشريات من ساعة الاحتضار إلى الاستقرار في جنان الخلد ، ففي لحظة الاحتضار تكون لهم البشرى ، حيث يقول الحق سبحانه : " إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ

أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ " (فصلت : ٣٠-٣٢) ، وكما ورد في الأثر يقال للعبد المؤمن : لا تخف يا عبد الله ولا تحزن وأبشر بالجنة التي كنت توعد ، هذا مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدًا في الجنة .

وعند السؤال يكون لهم التثبيت ، حيث يقول الحق سبحانه : " يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ " (إبراهيم : ٢٧) .

فإذا كان يوم المحشر والمنشر كان تلقي الملائكة لهم بالبشرى والطمأنينة ، حيث يقول الحق سبحانه : " إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ " (الأنبياء : ١٠١-١٠٣) .

وحال أهل الجنة أمان وسلام وإكرام ، حيث يقول الحق سبحانه: "وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ " (الرعد : ٢٣ ، ٢٤) ، ويقول الحق سبحانه :" سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ

طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ " (الزمر: ٧٣) ،" ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ " (الزخرف :٧٠) ، لا غل فيها ولا حسد ، حيث يقول الحق سبحانه : " وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ " (الحجر : ٤٧) ، ويقول سبحانه : " وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ " (الكهف : ٣١) ، ذلك أن رب العزة يطلع على أهل الجنة فيقول : " يَا أَهْلَ الجَنَّةِ ؟ فَيَقُولُونَ : لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ ، فَيَقُولُ : هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ : وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ ، فَيَقُولُ : أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ ، قَالُوا : يَا رَبِّ ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ : أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي ، فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا " (صحيح البخاري) .

وهي دار المتقين وميراثهم ، يقول سبحانه : " تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا " (مريم : ٦٣) ، وقال سبحانه : " إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا " (الكهف : ١٠٧ ، ١٠٨) ، وقال سبحانه : " قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ

مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ
حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ
﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ
لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ "
(المؤمنون : ١-١١) ، ويقول تعالى :" إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾
فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟
هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ
عِينٍ " (الطور : ١٧-٢٠).

* * *

محمد (صلى الله عليه وسلم) نبي الرحمة

أرسل الله (عز وجل) نبينا محمدًا (صلى الله عليه وسلم) رحمة للعالمين ، فقال سبحانه :" وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ "(الأنبياء: ١٠٧)، وعرف نبينا (صلى الله عليه وسلم) نفسه ، فقال:" يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ" (المستدرك للحاكم)، وأكد القرآن الكريم ذلك ، فقال سبحانه : "لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ " (التوبة: ١٢٨).

فكتابه (صلى الله عليه وسلم) كتاب رحمة ، حيث يقول الحق سبحانه : " وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ "(الإسراء: ٨٢) ، ودينه دين الرحمة والأمن والأمان والسلام للبشرية جمعاء ، دين يرسخُ أسس التعايش السلمي بين البشر جميعًا ، يحقنُ الدماءَ كل الدماء ، ويحفظُ الأموال كل الأموال ، على أسس إنسانيةٍ خالصةٍ دون تفرقة بين الناس على أساس الدين أو اللون أو الجنس أو العرق ، فكل الأنفس حرام ، وكل الأعراض مصانة ، وكل الأموال محفوظة ، وكل الأمانات مؤداةٌ لأهلها ، وبلا أي استثناءات ، وهذا نبينا (صلى الله عليه وسلم) عند هجرته إلى المدينة يترك عليَّ بن أبي طالب بمكة ليردَّ الأماناتِ إلى من آذوه وأخرجوه وجردوا كثيـرًا

من أصحابه من أموالهم وممتلكاتهم .

ويومَ الطائفِ عندما سلطوا عليه عبيدهم وصبيانهم يرمونه بالحجارة حتى سال الدم من قدميه الشريفتين ، وجاءه مَلكُ الجبال يقول : " يَا مُحَمَّدُ إِنَّ الله قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَأَنَا مَلكُ الْجِبَالِ وَقَدْ بَعَثَنِي اللهُ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ فإِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمْ الْأَخْشَبَيْنِ"(وهما جبلان بمكة) فَقَالَ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : " بَلْ أقول : اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون ، إني لأَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ الله مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ ، لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا " (متفق عليه)، ولّما قِيلَ له : ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ، قَالَ :"إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا ، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً "(صحيح مسلم) .

فالإسلامُ دين رحمة وسلام للعالم كله ، ولا يوجد في الإسلام قتلٌ على المعتقد قط ، فعندما رأى النبي (صلى الله عليه وسلم) امرأة كافرة مقتولة في ساحة القتال ، قال (صلى الله عليه وسلم) : " مَنْ قتلها ؟ مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُقَاتِلَ " (سنن أبي داود) ، بما يؤكد أن القتل ليس مقابلًا للكفر ، إنما يكون القتال لدفع العدوان ، فلا إكراه في الدين ، ولا فظاظة في القول ، يقول الحق سبحانه لنبينا :" وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ

يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ " (آل عمران: ١٥٩)، وعندما خاطب القرآن الكريم الكفار على لسان نبينا (صلى الله عليه وسلم) ولسان أصحابه قال : " وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ "(سبأ : ٢٤)، ولم يقل : نحن على هدى وأنتم في ضلال مبين مع تحقق ضلالهم ، بما يعرف لدى علماء البلاغة بأسلوب الإنصاف ، فهذه ثقافتنا التي تنصف الآخر حتى في القول.

لقد أمر الإسلام بالقول الحسن ، فقال سبحانه : " وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا "(البقرة: ٨٣)، للناس كل الناس ، بل قولوا : التي هي أحسن ، "وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ" (الإسراء : ٥٣) ، وافعلوا التي أحسن ، " وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ "(فصلت:٣٤ ، ٣٥)، هذا هو نبينا (صلى الله عليه وسلم) ، وهذه هي أخلاق من قال : " إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ " (الجامع الصحيح).

وإذا كان ديننا هو دين الرحمة ، وكتابنا كتاب الرحمة ، ونبينا (صلى الله عليه وسلم) هو نبي الرحمة ، فما بالنا ؟ وما الذي أصابنا ؟ وما الذي وصل ببعض المحسوبين على ديننا إلى هذه القسوة ؟ وما المخرج؟.

لا شك أن عوامل كثيرة كانت وراء ذلك ، منها سيطرة غير المتخصصين على الخطاب الدعوي واختطافهم له لفترات زمنية طويلة ، واعتقاد بعضهم اعتقادًا خاطئًا أن زيادة التشدد زيادة في التدين ، فكل هذه المفاهيم الخاطئة قد صارت في حاجة ملحة إلي تصويبها ، مع التأكيد على أن الإسلام هو دين الرحمة والسماحة واليسر ، فأهل العلم على أن الفقه هو التيسير بدليل ، ولم يقل أحد ممن يعتد بعلمه في القديم ولا في الحديث إن الفقه هو التشدد ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى : " يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ "(البقرة: ١٨٥)، ويقول (عز وجل) : " وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ "(الحج: ٧٨) ، ويقول سبحانه : " وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ " (الحجرات: ٧ – ٨) ، وعَنْ عَائِشَةَ (رَضِيَ الله عَنْهَا) قَالَتْ : "مَا خُيِّرَ النَّبِيُّ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَ هُمَا مَا لَمْ يَأْثَمْ، فَإِذَا كَانَ الإِثْمُ كَانَ أَبْعَدَهُمَا مِنْهُ "(متفق عليه).

* * *

المسابقة في الخيرات

يقول الحق سبحانه :" سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ " (الحديد : ٢١)، ويقول سبحانه:" وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ " (آل عمران : ١٣٣) ، ويقول سبحانه : "وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ " (البقرة : ١٤٨)، ويقول سبحانه : "ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ " (فاطر :٣٢) ، ويقول سبحانه : " إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ " (الأنبياء :٩٠) ، ويقول تعالى: " وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ " (المطففين : ٢٦) .

ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) :" بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا : هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا ، أَوْ غِنًى مُطْغِيًا ، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ، أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا،

أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا ، أَوْ الدَّجَّالَ ؛ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ ، أَوْ السَّاعَةَ ؛ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ؟"(رواه الترمذي) ، وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال لِرَجُلٍ وَهُوَ يَعِظُهُ : " اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ : شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغُلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ"(المستدرك للحاكم) ، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أَنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ أَتَوْا رَسُولَ الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَقَالُوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَى ، وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ ، فَقَالَ :" وَمَا ذَاكَ؟ " قَالُوا : يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي ، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ ، وَيَتَصَدَّقُونَ وَلَا نَتَصَدَّقُ ، وَيُعْتِقُونَ وَلَا نُعْتِقُ ، فَقَالَ رَسُولَ الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : " أَفَلَا أُعَلِّمُكُمْ شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ؟ وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ» قَالُوا: بَلَى ، يَا رَسُولُ الله ، قَالَ: " تُسَبِّحُونَ ، وَتُكَبِّرُونَ ، وَتَحْمَدُونَ ، دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً" (رواه مسلم) .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ الله (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: " لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الأَوَّلِ ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلاَّ أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لاَسْتَهَمُوا ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهْجِيرِ لاَسْتَبَقُوا إِلَيْهِ ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا " (متفق عليه) ، وعَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ

(رضي الله عنه) عَنْ أَبِيهِ ، قَالَ : سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ (رضي الله عنه) يَقُولُ: أَمَرَنَا رَسُولُ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أَنْ نَتَصَدَّقَ فَوَافَقَ ذَلِكَ عِنْدِي مَالًا ، فَقُلْتُ: اليَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا، قَالَ: فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي، فَقَالَ رَسُولُ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ):" مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟" قُلْتُ: مِثْلَهُ ، وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ ، فَقَالَ: " يَا أَبَا بَكْرٍ مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟" قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ الله وَرَسُولَهُ ، قُلْتُ : لَا أَسْبِقُهُ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا. (رواه الترمذي) .

وعن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قال : مَرَّ النَّبِيُّ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَأَنَا مَعَهُ وَأَبُو بَكْرٍ بِعَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ وَهُوَ يَقْرَأُ ، فَاسْتَمَعَ لِقِرَاءَتِهِ ، وَسَجَدَ عَبْدُ الله وَالنَّبِيُّ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) خَلْفَهُ ، فَقَالَ : " سَلْ تُعْطَهُ " ثُمَّ مَضَى النَّبِيُّ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَقَالَ : "مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضًّا كَمَا أُنْزِلَ فَلْيَقْرَأْهُ مِنِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ"، قال : فأدلجت إلى عبد الله بن مسعود لأبشّره بما قال رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم) ، قال: فلمّا ضربت الباب ، أو قال: لمّا سمع صوتي قال: ما جاء بك هذه السّاعة؟ قلت: جئت لأبشّرك بما قال رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم) ، قال: قد سبقك أبو بكر، قلت: إن يفعل فإنّه سبّاق بالخيرات، ما استبقنا خيرا قطّ إلّا سبقنا إليه أبو بكر" (مسند أحمد).

وقد سئل أحدهم عن حال أحد الصالحين السابقين في الخيرات ، فقال : لو قيل له إن القيامة غدًا ما وجد مزيد عمل يعمله.

* * *

معاملة العامل والأجير

أمرنا ديننا الحنيف بحسن معاملة الناس جميعًا ، وزاد من الوصية بالضعفاء ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : "وهل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم" (صحيح البخاري) ، فالضعيف قوي بالله ، بنصرته ومعيته ، حيث يقول الحق سبحانه في الحديث القدسي : " ثَلاَثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ" (صحيح البخاري).

وقد أوصانا نبينا (صلى الله عليه وسلم) بالعمال والأجراء ومن يقومون بأعمال الخدمة أو الخدم ، فقال (صلى الله عليه وسلم) :" إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ ، جَعَلَهُمُ اللهّ تحْتَ أَيْدِيكُمْ ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مما يأكُلُ وَلْيُلْبِسْهُ مِما يَلْبَسُ ، ولا تُكَلِّفُوهُمْ ما يَغْلِبُهُمْ فإنْ تكلَّفوهُمْ فأعِينُوهُمْ" (متفق عليه) .

وعليك أن تتذكر أن الأيام دول ، وأن غني اليوم قد يكون فقير الغد وفقير اليوم قد يكون غني الغد ، حيث يقول الحق سبحانه :" وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ " (آل عمران :١٤٠) ، وأن من نعمة الله تعالى على بعض الناس أن جعلهم مخدومين فإن شكروا النعمة وحافظوا عليها بحسن معاملة من يخدمونهم والإحسان إليهم أدام الله عليهم نعمه

وحفظها ، حيث يقول الحق سبحانه :" وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ " (إبراهيم : ٧) ، فإن جحد الإنسان النعمة وتطاول واستعلى وتجبر على خلق الله فإنه سبحانه قادر أن يبدل الأحوال فيجعل الخادم مخدومًا والمخدوم خادمًا ، وكان نبينا (صلى الله عليه وسلم) يقول للسيدة عائشة : " يَا عَائِشَةُ ، أَحْسِنِي جِوَارَ نِعَمِ الله، فَإِنَّهَا قَلَّ مَا تَزُولُ عَنْ أَهْلِ بَيْتٍ فَكَادَتْ أَنْ تَعُودَ إِلَيْهِمْ" (المعجم الأوسط للطبراني)، وكان (صلى الله عليه وسلم) يقول : "إِنَّ لله عِنْدَ أَقْوَامٍ نِعَمًا يُقِرُّهَا عِنْدَهُمْ مَا كَانُوا فِي حَوَائِجِ النَّاسِ ، مَا لَمْ يَمَلُّوهُمْ فَإِذَا مَلُّوهُمْ نَقَلَهَا مِنْ عِنْدِهِمْ إِلَى غَيْرِهِمْ" (المعجم الأوسط للطبراني) .

وما أسرع تبديل الأحوال وتغير الزمن ، حتى إن بعض العلماء والحكماء قد عدوا ذلك من علامات الساعة سرعة مر الزمان وكره وتبدل أحواله وجولاته ، وقد ضرب لنا نبينا (صلى الله عليه وسلم) أنموذجًا إنسانيًّا رائعًّا في معاملة من يخدمه ، فيقول سيدنا أنس بن مالك (رضي الله عنه) : خَدَمْتُ رَسُولَ الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عَشْرَ سِنِينَ ، وَالله مَا قَالَ لِي: أُفًّا قَطُّ، وَلَا قَالَ لِي لِشَيْءٍ: لِمَ فَعَلْتَ كَذَا؟ وَهَلَّا فَعَلْتَ كَذَا؟ " (صحيح مسلم) ، وذكر لنا (صلى الله عليه وسلم) قصة تحتاج إلى وقفة تأمل وتدبر في معانيها وهي قصة أصحاب الغار ، فعن عبدِ الله بنِ عمرَ بن الخطابِ

(رضيَ اللهُ عنهما) قَالَ : سمعتُ رسولَ الله (صلى الله عليه وسلم) ، يقول : "انطَلَقَ ثَلاثَةُ نَفَرٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى آوَاهُمُ المَبيتُ إِلى غَارٍ فَدَخلُوهُ، فانْحَدرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الغَارَ ، فَقالُوا : إِنَّهُ لاَ يُنْجِيكُمْ مِنْ هذِهِ الصَّخْرَةِ إِلاَّ أَنْ تَدْعُوا اللهَ بصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ . قَالَ رجلٌ مِنْهُمْ : اللهمَّ كَانَ لِي أَبَوانِ شَيْخَانِ كبيرانِ ، وكُنْتُ لا أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلاً ولاَ مالاً ، فَنَأَى بِي طَلَب الشَّجَرِ يَوْماً فلم أَرِحْ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا ، فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا فَوَجَدْتُهُما نَائِمَينِ ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَهُمَا وَأَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلاً أو مالاً ، فَلَبَثْتُ - والْقَدَحُ عَلَى يَدِي - أنتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُما حَتَّى بَرِقَ الفَجْرُ والصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَميَّ ، فاسْتَيْقَظَا فَشَرِبا غَبُوقَهُما ، اللهمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذلِكَ ابتِغَاء وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عَنّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هذِهِ الصَّخْرَةِ ، فانْفَرَجَتْ شَيْئاً لا يَسْتَطيعُونَ الخُروجَ مِنْهُ . قَالَ الآخر : اللهمَّ إِنَّهُ كانَتْ لِيَ ابْنَةُ عَمّ ، كَانَتْ أَحَبَّ النّاسِ إِليَّ - وفي رواية: كُنْتُ أُحِبُّها كأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النساءَ - فأَرَدْتُهَا عَلَى نَفْسِهَا فامْتَنَعَتْ منِّي حَتَّى أَلَّمَّتْ بها سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ فَجَاءتْنِي فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمئةَ دينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْني وَبَيْنَ نَفْسِهَا فَفعَلَتْ ، حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا - وفي رواية : فَلَمَّا قَعَدْتُ بَينَ رِجْلَيْهَا ، قالتْ : اتَّقِ اللهَ وَلاَ تَفُضَّ الخَاتَمَ إلاّ بِحَقِّهِ ، فَانصَرَفْتُ عَنْهَا وَهيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِليَّ وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أَعْطَيتُها . اللهمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذلِكَ ابْتِغاءَ وَجْهِكَ فافْرُجْ عَنَّا

مَا نَحْنُ فيهِ ، فانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ ، غَيْرَ أَنَّهُمْ لا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا . وَقَالَ الثَّالِثُ : اللهمَّ اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ وأَعْطَيْتُهُمْ أجْرَهُمْ غيرَ رَجُل واحدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهبَ ، فَثمَّرْتُ أجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنهُ الأمْوَالُ ، فَجَاءنِي بَعدَ حِينٍ ، فَقالَ : يَا عبدَ الله ، أَدِّ إِلَيَّ أجْرِي ، فَقُلْتُ : كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أجْرِكَ : مِنَ الإبلِ وَالبَقَرِ والْغَنَمِ والرَّقيقِ ، فقالَ : يَا عبدَ الله ، لاَ تستهزئ بي ! فَقُلْتُ : لاَ أَسْتَهْزِئ بِكَ ، فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فاسْتَاقَهُ فَلَمْ يترُكْ مِنهُ شَيئاً . اللَّهُمَّ إنْ كُنتُ فَعَلْتُ ذلِكَ ابتِغَاءَ وَجْهِكَ فافْرُجْ عَنَّا مَا نَحنُ فِيهِ ، فانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمْشُونَ " (مُتَّفَقٌ عليه).

ولنا في قصة سيدنا موسى (عليه السلام) مع فتاه (يوشع بن نون) معتبرٌ حين خرجا طلبًا للقاء العبد الصالح ، وأمر سيدنا موسى (عليه السلام) فتاه بأن يراقب حركة الحوت ، غير أن الحوت قد انطلق من مكتله ونسي (يوشع بن نون) أن يخبر سيدنا موسى (عليه السلام) بقوله: " قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا " (الكهف : ٦٣) ، ولننظر هنا إلى رد فعل نبي الله موسى (عليه السلام) حين قال الله تعالى على لسانه : " قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا "(الكهف : ٦٤) ، ولم يعنفه ولم يزجره، وإنما خاطبه مخاطبة الأخ والصديق الحميم في لطف ولين.

* * *

الرحمة بالحيوان والجماد

ديننا دين الرحمة في أسمى معانيها ، ونبينا نبي الرحمة ، وقد أرسله ربه (عز وجل) رحمة للعالمين فقال سبحانه : " وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ" (الأنبياء: ١٠٧) ، وقد قال (صلى الله عليه وسلم) : "الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمْ الرَّحْمَنُ ، ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ أَهْلُ السَّمَاءِ" (سنن الترمذي)، وقال (صلى الله عليه وسلم) : " مَنْ لَا يَرْحَمْ لَا يُرْحَمْ " (صحيح مسلم) ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : " لا تنزع الرَّحْمَة إلَّا من شقيٍّ " (سنن الترمذي) .

وهذه الرحمة تشمل الإنسان والحيوان والجماد ، ومن باب الرحمة بالحيوان : ما ذكره نبينا (صلى الله عليه وسلم): " بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَنَزَلَ بِئْرًا فَشَرِبَ مِنْهَا ثُمَّ خَرَجَ ، فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنْ الْعَطَشِ ، فَقَالَ : لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي فَمَلَأَ خُفَّهُ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ ثُمَّ رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ الله لَهُ فَغَفَرَ لَهُ قَالُوا : يَا رَسُولَ الله وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا؟ قَالَ فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ " (صحيح البخاري).

ومنهـا : قصـة الجمـل الـذي رأى النبي (صلَّى الله عليه وسلم) فحَنَّ وذَرَفَت عيناه ، فأتاه النبيُّ (صلَّى الله عليه وسلم) فمسح ذِفْـراه فسكتَ ،

فقال (صلَّى الله عليه وسلم) : "من ربُّ هذا الجملِ؟ لمن هذا الجملُ؟ "، فجاء فتى من الأنصارِ، فقال: لي يا رسول الله، قال : " أفلا تتقي اللهَ في هذه البهيمةِ التي مَلَّكَكَ اللهُ إياها، فإنه شكا إليَّ أنك تُجِيعُه وتُدْئبه" (سنن أبي داود) .

ومنها : تحذيره (صلى الله عليه وسلم) الشديد لنا من أذى الحيوان ، حيث يقول (صلى الله عليه وسلم) : "عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا سَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا ، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ" (متفق عليه) ، مع ملاحظة أن سبب دخول النار ليس قتلها ولا تعذيبها ، إنما هو مجرد حبسها وإهمال أمرها.

ولما رأى (صلى الله عليه وسلم) حُمَّرَةً (بضم الحاء المهملة وتشديد الميم المفتوحة وقد يخفف طائر صغير كالعصفور) قد نزعوا عنها فراخها ، قال (صلى الله عليه وسلم): "مَنْ فَجَعَ هذهِ بولدِها ؟ رُدُّوا ولدَها إليها" (سنن أبو داود) ، ورأى قَرْيَةَ نملٍ قد حرقها بعض الناس ، فقال (صلى الله عليه وسلم) :"من حَرَّقَ هذه؟ " قلنا: نحن، قال : " إنهُ لا ينبغِي أن يُعذَّبَ بالنار إلا رَبُّ النارِ" (سنن أبي داود) ، وعن سهل بن الحنظلية (رضي الله عنه) قال : مرَّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ببعير قد لحق ظهره ببطنه فقال : " اتَّقُوا اللهَّ فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ الْمُعْجَمَةِ، ارْكَبُوهَا صَالِحَةً، وَكُلُوهَا

صَالِحَةً" (سنن أبي داود) ، والمعجمة أي التي لا تنطق ولا تستطيع أن تطالب بحقوقها، على حد قول عنترة العبسي في وصف فرسه :

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى

وَلَكانَ لو عَلِم الكَلامَ مُكَلِّمِي

ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ " (متفق عليه).

ولم تقف رحمة النبي (صلى الله عليه وسلم) عند حدود الإنسان أو الحيوان ، بل تعدت ذلك إلى الجماد ، فقد كان (صلى الله عليه وسلم) يقول : " إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ" (صحيح مسلم) ، ولما ارتجف أُحُد يومًا قال (صلى الله عليه وسلم): "اسْكُنْ أُحُدُ فَلَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ"، وكان (صلى الله عليه وسلم) يقول : " أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ " (متفق عليه) ، ولما بنى (صلى الله عليه وسلم) مسجده بالمدينة المنورة كان يتخذ من أحد جذوع النخل منبرًا ، فلما صنعوا له منبرًا وصعد النبي (صلى الله عليه وسلم) عليه حنَّ الجِذْعُ إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فَأَتَاهُ فَمَسَحَ يَدَهُ عَلَيْهِ ، وفي رواية "فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا فَسَكَنَتْ" (صحيح البخاري) .

وقد نهى نبينا (صلى الله عليه وسلم) أصحابه ، ونهى كذلك الخلفاء الراشدون قادة جيوشهم أن يخربوا عامرًا ، أو يهدموا بنيانًا إلا إذا تمترس به العدو ، وألا يحرقوا زرعًا أو يقطعوا نخلا ، فكل الكون مسبح لله (عز وجل) ، يقول سبحانه وتعالى :" أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ " (النور : ٤١)، ويقول سبحانه :" تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا " (الإسراء : ٤٤) .

* * *

جـزاء المتقـين

يقول الحق سبحانه : " يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ " (آل عمران : ١٠٢) ، ويقول سبحانه :" يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَـٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا " (الأحزاب: ٧٠ - ٧١)، ويقول سبحانه : " يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـٔٗاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٣٣ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ " (لقمان : ٣٣ – ٣٤) .

والتقوى عرفها الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) بأنها : الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل، والتقوى من " الوقاية " ، وسُمِّيَ المتقون بالمتقين لأنهم اتقوا مالا يتقيه غيرهم ، وعن عطية بن عروة السعدي (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " لاَ يَبْلُغُ الْعَبدُ أنْ يَكُونَ منَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَا لَا

بَأسَ بِهِ ، حَذَرًا مِمَّا بِهِ بَأسٌ " (رواه الترمذي) .

وقد كان الزهاد يتركون بعض الحلال مخافة أن تكون فيه شبهة حرام اتقاءً للشبهات ، فكما قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : " إِنَّ الحَلاَلَ بَيِّنٌ ، وَإِنَّ الحَرامَ بَيِّنٌ ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبَهَاتٌ لاَ يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ ، اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ ، أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى ، أَلاَ وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ ، أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَت صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ " (متفق عليه)، والتقوى والوقاية ترجعان لأصل لغوي واحد ، هو "وقى"، فالتقوى وقاية من المعاصي من الدنيا ، ووقاية من عذاب الله يوم القيامة ، حيث يقول الحق سبحانه: " وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ " (الدخان : ٥٦) ، ويقول (عز وجل) : " يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ " (التحريم : ٦) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : "اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ " (متفق عليه) ، أي اجعلوا بينكم وبين النار وقاية ولو بشق تمرة .

وقد حفل القرآن الكريم بالعديد من بشارات المتقين في الدنيا والآخرة، يقول الحق سبحانه : " وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ

جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا " (الطلاق :٢ - ٣) ، ويقول سبحانه : "وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا "(الطلاق : ٥) ، ويقول سبحانه: " أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ " (يونس : ٦٢ - ٦٤) ، ويقول سبحانه : " إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ٣١ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ " (فصلت : ٣٠ - ٣٢).

ويقول سبحانه : " إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ " (الذاريات : ١٥- ١٦) ، ويقول تعالى : " إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ " (الطور : ١٧) ، ويقول سبحانه : " إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ٥٤ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ " (القمر : ٥٤ - ٥٥) ، ويقول عز وجل :" وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ

ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ " (النور : ٥٢) ، ويقول تعالى : " فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ " (الليل : ٥ – ٧) .

والتقوى مع الأخذ بالأسباب أهم دعائم النصر الآمن ، حيث يقول سبحانه : " وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ " (آل عمران : ١٢٠) ، ويقول تعالى :" وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٢٣ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ۝١٢٤ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ" (آل عمران : ١٢٣ – ١٢٥) .

وهى سبيل تحقيق وتحقق العلم الرباني ، حيث يقول سبحانه : "وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ " (البقرة : ٢٨٢) ، ويقول سبحانه : " فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا " (الكهف : ٦٥) ، وقد قالوا : "من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يكن يعلم ".

وهي سبيل إكرام الله للأبناء والأحفاد والذرية ، حيث يقول الحق سبحانه : " وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ

عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا " (النساء : ٩) .

والمتقون محاطون بمعية الله تعالى وحفظه ، قال سبحانه : " وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ " (البقرة : ٦٢)، ويقول سبحانه : " إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ " (النحل : ١٢٨) ، وهم أهل محبته حيث يقول الحق سبحانه :" إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ " (التوبة : ٤) ويقول سبحانه:" فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ " (الأعراف : ٣٥) .

والجنة مآلهم وميراثهم ، حيث يقول الحق سبحانه :" تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا "(مريم : ٦٣) ، وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال : سئل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن أكثر ما يدخل الناس الجنة ؟ فقال : " تقوى الله وحسن الخلق" (رواه الترمذي) .

* * *

معا لمجتمع نظيف متحضر

النظافة سلوك متحضر ، بل هي عنوان الحضارة ، ولا يمكن لشعب يمتلك حضارتين عظيمتين من أعظم الحضارات التي عرفها التاريخ الإنساني أن يهمل هذا السلوك الحضاري ، فنحن أبناء حضارة تضرب في جذور التاريخ وأعماقه لأكثر من سبعة آلاف عام ، وحضارة أخرى هي حضارتنا الإسلامية الراقية ، وقد امتزجتا معًا لتصنعا نسقًا فريدًا مميزًا للشخصية المصرية .

وهذه الحضارة الراقية تدعو إلى الأناقة والجمال ، والبعد عن كل ما يؤذي وينفر ولا يقره الذوق ولا الطبع السليم ، فقد امتدح الحق سبحانه وتعالى أهل مسجد قباء لحرصهم على الطهارة والنظافة ، فقال سبحانه : "فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ " (التوبة: ١٠٨) ، وأمرنا سبحانه أن نأخذ زينتنا عند كل مسجد ، فقال: "يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ "(الأعراف:٣١)، وأمرنا أن نطهر وننظف أجسادنا وثيابنا ، فقال سبحانه : " يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟" (المائدة:٦)، وقال (سبحانه وتعالى) مخاطبًا نبيه (صلى الله عليه وسلم) :

" يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ " (المدثر: ١ ـ ٤) ، وقد بيّن رسولنا محمد (صلى الله عليه وسلم) أن الطهور نصف الإيمان أي نصف الدين ، فقال (عليه الصلاة والسلام) : " الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ " (صحيح مسلم) ، بل إن الإسلام قد جعل الطهارة والنظافة الكاملة للجسد والثوب والمكان شرطًا لقبول أهم عبادة في حياة المسلم والركن العملي الأول في الإسلام بعد الشهادتين ، وهي الصلاة ، فقال (صلى الله عليه وسلم) :"إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ لَا يَقْبَلُ صَلَاةً بِغَيْرِ طُهُورٍ، وَلَا صَدَقَةً مِنْ غُلُولٍ" (صحيح مسلم ومسند أحمد واللفظ له) ، بل أبعد من ذلك فإن النبي (صلى الله عليه وسلم) قد أكد في حديثه الصحيح أن عدم الطهارة من البول وحسن الاستبراء منه كان سببًا لعذاب رجل في قبره ، وذلك حينما مر (صلى الله عليه وسلم) بِقَبْرَيْنِ ، فَقَالَ :"إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لاَ يَسْتَتِرُ مِنَ البَوْلِ ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ" (متفق عليه) ، وفي رواية " إِنَّهُمَا يُعَذَّبَانِ ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا هَذَا فَكَانَ لَا يَسْتَنْزِهُ مِنَ الْبَوْلِ ، وَأَمَّا هَذَا فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ" (سنن أبي داود).

ونهى ديننا الحنيف عن كل ما يلوث الماء ، أو المكان ، أو يعكر على الناس صفو حياتهم ، أو يسبب لهم الأذى والاشمئزاز ، فنهى عن التبول في الماء ، أو في الظل ، أو في طريق الناس ، أو في الأماكن العامة ، فقال (صلى

الله عليه وسلم) :" اتَّقُوا اللاعِنَيْنِ ، قَالُوا : وَمَا اللاعِنَانِ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: الَّذِي يَتَخَلَّى فِي طَرِيقِ الناس وَفِي ظِلِّهِمْ " (مسند أحمد).

كما نهى الإسلام أن يبول الإنسان في مستحمه أي المكان الذي يقوم بالاستحمام فيه ، سواء أكان نهرًا أم بحرًا أم حمام سباحة ، أو أن يتبول في اتجاه الريح ، ووضع لذلك آدابًا عظيمة فصلتها كتب الفقه في أبواب الطهارة .

ومن يعدد الاغتسالات الواجبة كالغسل عند البراءة من الحيض ، أو الاستحاضة ، أو النفاس ، أو بعد الجماع ، أو عند نزول المني ، أو الاغتسالات المسنونة كغسل الجمعة عند من قال بأنه سنة وهو قول الجمهور ، وإن كان بعض الفقهاء قد ذهب إلى القول بوجوبه ، وغسل العيدين ، وغسل من غسل الميت ، والغسل لدخول مكة ، وغير ذلك من الاغتسالات المسنونة المتعددة يدرك مدى عناية الإسلام بالنظافة ، بل أبعد من هذا فقد حث الإسلام على الجمال والتحلي به ، فعندما قال نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ ، فقال رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً ، قَالَ (صلى الله عليه وسلم) :" إِنَّ الله جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ" (صحيح مسلم) ، وسن الإسلام السواك لطهارة الفم ، ودعا إلى غسل باطن أصابع اليدين والقدمين عند كل وضوء فيما يعرف بتخليل أصابع

اليدين والرجلين ، وجعل إسباغ الوضوء أي إكماله وإتمامه على المكاره وفي شدة البرد ماحيًا للسيئات مضاعفًا للحسنات، فقال (صلى الله عليه وسلم): " أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو الله بِهِ الْخَطَايَا ، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ ؟ قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ الله ، قَالَ : إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ" (صحيح مسلم) ، وقد جعل الإسلام العمل على نظافة الطرقات ورفع الأذى عنها وعدم طرحه فيها شعبة من شعب الإيمان ، فقال (صلى الله عليه وسلم) :" الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً ، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ : لَا إِلَهَ إِلَّا الله ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ " (صحيح مسلم) ، وهذا الحديث يعطي إماطة الأذى عن الطريق مكانة عظيمة بإدخال ذلك في شعب الإيمان والنص عليه صراحة ، ويؤكد ذلك أن رجلا سأل النبي (صلى الله عليه وسلم) عن عمل يدخله الجنة ، فقال له النبي (صلى الله عليه وسلم) : " أَمِطْ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ " (مسند أحمد) ، وفي حديث آخر : "وَتُمِيطُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ " (متفق عليه).

وفي كل ذلك ما يؤكد أن حضارتنا تدعو إلى كل مظاهر النظافة والطهارة والجمال ، وتنهى عن كل ألوان النجاسة والقبح والأذى ، مما يتطلب منا أن نلتفت وبقوة إلى أهمية النظافة في حياتنا حتى لا نؤذي أنفسنا أو نؤذي غيرنا ، فإن لم نقم بالإسهام في نظافة نيلنا وبيئتنا ومجتمعنا ومحيطنا،

فعلى أقل تقدير لا نكون سببًا في أذى الناس وأذى أنفسنا ، سواء بإلقاء القمامة أو المخلفات في الطرق أو الأماكن العامة ، أم بصرف مخلفاتنا من الصرف الصحي أو الصناعي على نيلنا العذب ، أو أن نلوثه بإلقاء القمامة أو المخلفات فيه ، أو أن نشوه جماله بإلقاء المخلفات على ضفافه وشواطئه .

فعلى كل واحد منا أن يعمل على نظافة جسده ، وثوبه ، ومكانه ومدرسته ، ومكان عمله ، وأن يسهم في نظافة مجتمعه ، بأن يعز الأذى عن الطريق ، ويسهم قدر استطاعته وأقصى طاقته في أن نكون مجتمعا راقيا نظيفا متحضرًا .

على أن الأمم المتحضرة يمكن أن تحول القمامة ثروة بتنظيم جمعها وإعادة تدويرها ، فهل نحن جادون في ذلك ؟ وهل نحن قادرون عليه ؟ بكل تأكيد نعم ، على أن نتحول من التنظير إلى التطبيق ، وعلى أن يبدأ كل واحد منا بنفسه ، وليكن شعارنا : " معا لمجتمع نظيف متحضر" .

* * *

أنواع النفاق وعلاماته

النفاق داء قتَّال ، وله من جذره اللغوي نصيب ، يقال : نفقت الدابة أو الطير إذا ماتت ، فالنفاق موت للقلب ، وموت للضمير ، وموت للأخلاق، وموت للقيم ، وموت للروح .

والنفاق نوعان : عقدي ، وعملي ، أما العقدي فهو أن يُظهر الإنسان الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشره حلوه ومره ، ويبطن خلاف ذلك كله أو بعضه ، ويسميه بعض العلماء النفاق الأكبر ، وهو الذي يقول في شأن أصحابه رب العزة سبحانه: " إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا " (النساء : ١٤٥) ، لأن هؤلاء المنافقين كانوا أكثر شرًا وضررًا على الإسلام والمسلمين من الكفار والمشركين.

والنوع الثاني هو ما يعرف بالنفاق العملي ، وقد عرفه ابن حجر (رحمه الله) بأنه إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدوا صاحبها ، ومنه تجويد العبادة في العلن مراءاة للناس ، وقال عنه الإمام الغزالي (رحمه الله) : "هو طلب المنزلة في قلوب الناس بأن يريهم الخصال المحمودة من نفسه ، ليحمدوه " ، فينال بذلك منزلة أو مكانة أو نفعًا أو ثناءً ، وهذا النوع من النفاق محبط للعمل مُذهب بثوابه ، ففي الحديث القدسي يقول رب العزة :

" أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ " ، وفي رواية أخرى : " فَمَنْ عَمِلَ لِي عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي، فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ، وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ" (صحيح مسلم) .

وللنفاق العملي علامات ، من أبرزها : الكذب في الحديث ، وخلف الوعد والعهد ، وخيانة الأمانة ، والفجور في الخصومة ، ففي الحديث النبوي : " آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاَثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ" (متفق عليه) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا ، إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ"(متفق عليه).

ومن أخص علامات النفاق : الإفساد في الأرض ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى : " وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۚ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ" (البقرة : ٢٠٤- ٢٠٦) ، ومنها : الكسل عند أداء الطاعة والعبادة ، ومراءاة الناس بها أو بتجويدها والتظاهر بإتقانها على

عكس ما يكون في خلوته أو بعده عن الناس ، حيث يقول الحق سبحانه : " إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا " (النساء : ١٤٢) ، ويقول سبحانه : " وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ " (التوبة : ٥٤) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : "إِيَّاكُمْ وَشِرْكَ السَّرَائِرِ " قَالُوا : يَا رَسُولَ الله، وَمَا شِرْكُ السَّرَائِرِ ؟ قَالَ : "يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلاتَهُ جَاهِدًا لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ النَّاسِ إِلَيْهِ ، فَذَلِكَ شِرْكُ السَّرَائِرِ"(مسند أحمد) ، وكان سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يقول: من أبدى فوق ما في قلبه فهو منافق.

وقد توعد الحق سبحانه وتعالى المنافقين بالعذاب المقيم ، فقال سبحانه : " وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ " (التوبة : ٦٨) ، بل إن النص القرآني قدم ذكر المنافقين والمنافقات على المشركين والمشركات في باب العذاب ، فقال سبحانه : " لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى

ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا "(الأحزاب :٧٣) ،
ويقول سبحانه وتعالى : " وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ
وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ
عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا " (الفتح : ٦).

* * *

تعظيم ثواب الصدقة

لا شك أن المتصدق إنما يرجو عظيم الثواب الذي أعده الله للمتصدقين والمتصدقات ، حيث يقول سبحانه : " إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا " (الأحزاب : ٣٥) ، ويقول سبحانه : "مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" (البقرة:٢٦١، ٢٦٢)، ويقول سبحانه : " خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ "(التوبة: ١٠٣) ، وحيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) :

" مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ ، وَلاَ يَصْعَدُ إِلَى الله إِلَّا الطَّيِّبُ ، فَإِنَّ الله يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فُلُوَّهُ ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ" (متفق عليه) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): "حَصِّنُوا أَمْوَالَكُمْ بِالزَّكَاةِ ، وَدَاوُوا مَرْضَاكُمْ بِالصَّدَقَةِ ، وَأَعِدُّوا لِلْبَلَاءِ الدُّعَاءَ " (المعجم الكبير للطبراني).

وعلى المتصدق أن يتحرى وقوع الصدقة موقعها الذي يجب أن تكون فيه ، حيث يقول الحق سبحانه : " إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ " (التوبة: ٦٠) ، وعليه إن أراد أفضل الثواب وأعلاه أن يجتهد في ترتيب الأولويات ، وأن يدرك أن الأعم نفعًا والأوسع أثرًا مقدم على غيره من الأقل نفعًا أو أثرًا ، وأن ما يحفظ النفس مقدم على ما يدخل في إطار التحسينيات أو الكماليات ، فإطعام الجائع ، وكساء العاري ، ومداواة المريض ، وإيواء المشرد ، مقدم على مالا يعد أساسا في إقامة حياة الإنسان وحفظها وحفظ كرامته في العيش والحياة .

وإذا أردت عظيم الصدقة فضعها حيث تكون حاجة المجتمع ، فإن رأيت الحاجة أمس إلى المتطلبات الصحية ؛ فضعها في علاج المرضى وبناء

المستشفيات وتجهيزها ، وإن رأيت الأولوية للتعليم فضعها في بناء المدارس وتأثيثها وصيانتها والإنفاق على طلاب العلم الفقراء ورعايتهم ، وعلى الباحثين وبعثاتهم ، وعلى المراكز والمؤسسات العلمية وتطويرها ، وإن رأيت الأولوية لتحسين البنى التحتية من إقامة محطات مياه الشرب ، أو مشاريع الصرف الصحي ، أو تعبيد الطرق وتمهيدها ؛ فاجعل صدقتك في هذا الاتجاه ، وإن رأيت الأولوية للعمل والإنتاج فادعم المشروعات الصغيرة وتوفير فرص العمل للشباب ، وإن رأيت الأولوية لعمارة المساجد وصيانتها فاعمد إلى المناطق الأكثر احتياجًا إليها ، حيث يكون الناس في حاجة ملحة إلى مسجد ، سواء في منطقة جديدة كقرى الشباب والظهير الصحراوي والمناطق الجديدة ، أو اعمد إلى مسجد من المساجد القائمة التي تحتاج إلى إحلال وتجديد كلي أو جزئي أو صيانة فقم بإحلاله وتجديده أو صيانته أو فرشه ، على أن ترجع في كل شأن تعمل فيه إلى الجهة المختصة التي تستطيع أن تحدد لك الأولويات وأن تدلك على الأعم نفعًا ، لأن الثواب العظيم مرتبط بالقبول وعظيم النفع ، فكلما سدت الصدقة حاجة من حوائج أصحاب الحاجات كانت أكثر نفعا وأعظم ثوابًا ، وكلما كانت الحاجة أشد كان الثواب أعظم ، ومن ثمة على الإنسان أن يتحرى أين يضع صدقته ، حتى يحظى بأعظم الثواب وأعلاه ، كما أن عليه أن يتحرى ألا يقع فريسة للمحتالين والنصابين ممن يحترفون التسول ، لأن إعطاء من لا يستحق من الصدقات يضيعها على من يستحق من جهة ، ويشجع على

مزيد من احتراف التسول والبطالة والكسل من جهة أخرى ، ونبينا (صلى الله عليه وسلم) يقول :" إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِثَلَاثَةٍ: لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ ،أَوْ لِذِي غُرْمٍ مُفْظِعٍ ، أَوْ لِذِي دَمٍ مُوجِعٍ" (مسند أحمد) ، مع حرصك الشديد على التبرع للجهات والمصادر الموثوقة ، وأن يكون تبرعك مقابل إيصال رسمي معتمد من جهة رسمية أو في حساب رسمي مفتوح في أحد البنوك .

وأخيرًا تأكد أن ما تنفقه اليوم ستجده غدًا ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى : " وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ " (البقرة : ٢٧٢) ، ويقول سبحانه :"وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ " (سبأ : ٣٩)، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) :" مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ " (سنن الترمذي)، وحيث يقول (صلى الله عليه وسلم) :" ما مِن يومٍ يُصْبحُ العِبادُ فيهِ إلا مَلَكانِ يَنزلانِ ، فيقولُ أحَدُهُما : اللهمَّ أعط مُنفِقًا خَلَفًا ، ويقولُ الآخَرُ: اللهمَّ أعطِ مُمْسِكًا تَلَفًا " (متفق عليه).

* * *

إياكم وهجر القرآن

القرآن الكريم كلام الله ، المنزل على عبده محمد (صلى الله عليه وسلم) المتعبد بتلاوته ، المتحدي بأقصر سورة منه ، من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، لا يشبع منه العلماء ، ولا تنقضي عجائبه ، ولا يخلق عن كثرة الرد، لم تلبث الجن إذ سمعته أن قالوا :" قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا "(الجن:١،٢) ، وقالوا :"يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ " (الأحقاف:٣٠،٣١).

وما أن سمع أحد الأعراب قوله تعالى : "وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ "(هود:٤٤) ، حتى انطلق قائلاً : هذا كلام رب العالمين لا يشبه كلام المخلوقين ، وإلا فمن ذا الذي يأمر الأرض أن تبلع ماءها فتبلع ؟! ، ويأمر السماء أن تمسك ماءها فتقلع؟! ، ويأمر الماء أن يغيض فيطيع ويسمع ؟!، إنّه رب العالمين ولا أحد سواه .

وهـو أحسن الكلام وأجمـله ، وأصـدق الحـديث وأبلغـه ، وأحسن القصـص وأعـذبه ، يقول الحق سبحانه : " نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ " (يوسف:٣) ، ويقول سبحانه : "ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ " (الزمر:٢٣).

وهو عِزُّ هذه الأمة وشرفها ، يقول الحق سبحانه :" لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ " (الأنبياء:١٠) ، ويقول سبحانه وتعالى : "وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ "(الزخرف:٤٤)، وهذه الأمانة وتلك المسئولية تحتم علينا خدمة كتاب الله (عزّ وجلّ) ، والعناية به وبأهله ، حفظًا ، وتجويدًا ، وتلاوة ، وترتيلًا ، وفهمًا ، وتطبيقًا ، سواء في جانب المداومة على التلاوة والتحذير من هجره أو نسيانه ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى: "وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا " (الفرقان :٣٠) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " تَعَاهَدُوا الْقُرْآنَ ، فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَلُّتًا مِنَ الإِبِلِ فِي عُقُلِهَا" (متفق عليه) ، أم في جانب المداومة على الحفظ والتذكر والحث عليه ، يقول

نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) : "مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ الله فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ الم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَامٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ " (سنن الترمذي) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : "يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ، وَارْتَقِ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا " (سنن أبي داود) .

على أن الهجر لا يقف عند حدود هجر التلاوة أو نسيان الحفظ ، إنما الهجر الأكبر هو أن نحفظ القرآن ولا نعمل به ، أو أن يكون حفظنا في جانب وسلوكنا في جانب آخر.

ولنا في رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أسوة حسنة ، فقد كان (صلى الله عليه وسلم) قرآنًا يمشي على الأرض ، كما وصفته السيدة عائشة (رضي الله عنها) ، أي: أن سلوكه كان ترجمة عملية وتطبيقية لآي القرآن الكريم وأحكامه ، وتصف (رضي الله عنها) خلقه، فتقول : "كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ" (مسند أحمد) ، وهذا سيدنا سالم مولى أبي حذيفة (رضي الله عنه) أحد القراء الأربعة الذين قال النبي (صلى الله عليه وسلم) في حقهم : " خُذُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ" (متفق عليه) ، كان (رضي الله عنه) يقول :"يا أهل القرآن زينوا القرآن بأعمالكم" .

وقد بين نبينا (صلى الله عليه وسلم) أن القرآن الكريم قد يكون حجة لنا أو علينا ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : " الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ ، وَالْحَمْدُ لله

تَمْلأُ الْمِيزَانَ. وَسُبْحَانَ الله وَالْحَمْدُ لله تَمْلآنِ ـ أَوْ تَمْلأُ ـ مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَالصَّلاَةُ نُورٌ وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا" (صحيح مسلم) ، وفي الأثر : " رُبَّ حامل للقرآن والقرآن يلعنه "، ذلك فيمن يحفظ القرآن ولا يعمل به ، بل يعمل بخلاف أحكامه وتعاليمه ، وقد ضرب لنا القرآن الكريم مثلاً واضحًا فيمن يحملون كلام الله ثم لا يعملون به ، فقال سبحانه :"مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ "(الجمعة:٥) ، فلنحذر من الهجر سواء أكان هجر قراءة وتلاوة ، أم هجر تدبر وتأمل ، أم هجر عمل وامتثال .

على أن الأهم هو الفهم الصحيح لكتاب الله عز وجل ، وإخلاص النية فيه لله عز وجل ، لا المتاجرة به ، ولا العمل على تحريف كلمه ، واتخاذه مطية للحصول على مكاسب دنيوية ، كهؤلاء المجرمين الذين يقتلون ويدمرون ، ويفسدون ويخرّبون ، من منطلق تأويل خاطئ أو تحريف واضح لبعض نصوص القرآن ، والقرآن والإسلام والإنسانية منهم براء .

* * *

نعمة الأمن والاستقرار

يُعد الأمن نعمة من أهم النعم التي امتن الله تعالى بها على عباده ، بل ويأتي في مقدمتها ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِناً في سربِهِ ، مُعَافَىً في جَسَدِهِ ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا" (رواه الترمذي) .

فالأمن من أجلِّ النعم التي امتن الله (عز وجل) بها على عباده ، حيث يقول سبحانه وتعالى ممتنا على قريش : " لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ " (قريش:١-٤) ، ويقول سبحانه وتعالى ممتنا على مكة وأهلها : "أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ" (القصص:٥٧) ، ويقول (عز وجل) : " أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ " (العنكبوت :٦٧) ، ويقول تعالى:" وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ " (الأنفال : ٢٦) .

على أن القرآن الكريم يربط بين الأمن والإيمان ، والحفاظ على هذه

النعمة وعدم جحودها أو إنكارها أو نكرانها ، أو الخروج على مقتضيات الحفاظ عليها ، فيقول الحق سبحانه :" ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ " (الأنعام:٨٢) ، ويقول سبحانه: " لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ١٥ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ١٦ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ١٧ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ " (سبأ :١٥-١٨) ، ويقول سبحانه :" وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ " (النحل :١١٢) .

ولنا في الحاضر من حولنا عبرة ومتعظ بحال تلك الدول التي سقطت في براثن الفوضى ، والتفكك ، والتشرذم ، والتمزق ، ما بين لاجئ متعرض لمخاطر لا تعد ولا تحصى ، وبين مشرد ، ومعتقل ، ومحاصر ، أو شهيد ، أو

قتيل ، أو مصاب ، أو مقعد ، أو مشوَّه ، أو عاجز ، حيث رأينا الإرهابيين المجرمين يستغلون حالة الفوضى والتفكك هذه ، ويتجاوزون كل حدود الإنسانية في الفتك والتنكيل بالبشر من الحرق والسحل ، والسبي ، والاغتصاب ، والاستعباد ، وحمل الناس على حفر قبورهم بأيديهم ، مما يدعونا وبقوة إلى الحفاظ على ما أنعم الله (عز وجل) به علينا من أمن وأمان واستقرار .

على أن الحفاظ على هذه النعمة يحتاج منا إلى أمرين : أحدهما : شكر الله (عز وجل) عليها ، حيث يقول سبحانه :" وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ "(إبراهيم:٧)، والشكر ليس في المال فحسب ، وإنما في سائر النعم .

الأمر الآخر: هو وحدة الصف ، وإدراك حجم التحديات التي تواجهنا ، والأخذ بقوة على أيدي دعاة القتل ، والاغتيال ، وسفك الدماء ، والفوضى ، والتخريب ، مع تأكيدنا أن كل من يسلك هذه المسالك الخبيثة ينبغي أن يحاكم بتهمة الخيانة العظمى للوطن ، لأن هؤلاء الخونة والعملاء هم الأخطر على أمن الوطن واستقراره ، وهم لسان حال أعدائه ، ويدهم الطولى في الإفساد والتخريب ، فهم يأكلون طعامنا ، ويلبسون ثيابنا ، ويطعنوننا في ظهورنا ، وهم عيون أعدائنا ، إذ لا يمكن للإرهاب أن يخترق

أيّ دولة أو مجتمع إلا في ظل حواضن تستقبله وتأويه ، وتوفر له المناخ الملائم لإثارة الفوضى .

كما يجب مراقبة التمويل الأجنبي ، وعلامات الثراء الفاحش التي تظهر فجأة على بعض المأجورين الذين يبيعون دينهم ووطنهم وأهليهم وآدميتهم وإنسانيتهم بثمن بخس ، ظانين أنهم يمكن أن يخدعوا المجتمع ويفلتوا بجرائمهم ، يقول تعالى :" يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ "(النساء:١٤٢).

وإذا استطاع أحد أن يخدع بعض الناس بعض الوقت ، فمن المستحيل أن يخدع كل الناس كل الوقت ، ولا ينسى أحد أنه سيقف يوما بين يدي من لا يغفل ولا ينام ، حيث يقول الحق سبحانه:" وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ " (الصافات :٢٤) ، ويقول سبحانه : " وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ " (إبراهيم:٤٢-٤٣) ، ويقول سبحانه :" ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ " (غافر :١٧).

وقد ربط القرآن الكريم بين الرزق والأمن في مواضع متعددة ، منها: قوله تعالى في سورة النحل : " وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً

مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ " (النحل : ١١٢) ، فلما كانت القرية آمنة مطمئنة يتعاضد أبناؤها في الحفاظ على أمنها كان يأتيها رزقها رغدًا وفيرًا هانئًا من كل مكان ، فلما كفرت بأنعم الله (عز وجل) عليها وجحدتها أذاقها الله (عز وجل) لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون.

فالعلاقة بين الأمن والرزق وتوفير المناخ الملائم للاستثمار علاقة طردية ، فمتى تحقق الأمن والأمان والاستقرار تبعه النمو والاستثمار والعمل والإنتاج واتساع أسباب الرزق ، ومتى كانت الحروب ، أو التطرف والإرهاب ، والتخريب والتدمير ، والفساد والإفساد ، كان الشتات والفقر ومشقة العيش وصعوبة الحياة .

لهذا كله حرم الإسلام كل ما يهدد أمن الناس وحياتهم ، لدرجة أن النبي (صلى الله عليه وسلم) نفى الإيمان – سواء أكان نفيًا لأصل الإيمان ، أم نفيًا لكماله ، على اختلاف المجتهدين في المقصود من معمول النفي– عن كل من يهدد أمنهم وسلامهم ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : " الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ " (سنن الترمذي) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : "لا إِيمَانَ لِمَنْ

لا أَمَانَةَ لَهُ ، وَلا دِينَ لِمَنْ لا عَهْدَ لَهُ" (مسند أحمد) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ ، وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ ، وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ ، قَالُوا : وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : جَارٌ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ ، قَالُوا : وَمَا بَوَائِقُهُ؟ قَالَ : شَرُّهُ" (المستدرك على الصحيحين) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : "تَكُفُّ أَذَاكَ عَنِ النَّاسِ فَإِنَّهُ صَدَقَةٌ تَصَدَّقْ بِهَا عَلَى نَفْسِكَ" (مسند أحمد).

وقد نهى الإسلام عن كل ألوان الفساد والإفساد ، فقال سبحانه وتعالى: "وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا" (الأعراف: ٥٦) ، وقال تعالى: "وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ " (هود: ٨٥) ، ويقول سبحانه : "وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ " (البقرة : ٢٠٤-٢٠٦) ، ويقول (عز وجل) : " فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ " (محمد : ٢٢-٢٤).

* * *

التفـــاؤل والأمل

ما أجمل الأمل ، وما أصعب اليأس ، وما أشقه ، وما أخطره ، اليأس مدمر للنفوس ، محبط للآمال ، مولد للكآبة ، مثبط للهمم ؛ لذا نهى الإسلام عن اليأس والتأييس ، والإحباط والتحبيط ، وعدّه بعض أهل العلم من الكبائر .

يقول الحق سبحانه وتعالى على لسان سيدنا يعقوب (عليه السلام) : "يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ " (يوسف: ٨٧) ، ويقول سبحانه وتعالى على لسان إبراهيم (عليه السلام) : "أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ٥٤ قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ ٥٥ قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ "(الحجر : ٥٤-٥٦) ، وعن ابن عبّاس (رضي اللهّ عنهما) أنّه قال: إنّ رجلا قال : يا رسول اللهّ ، ما الكبائر ؟ قال: " الشِّرْكُ بِالله ، وَالْإِيَاسُ مِنْ رَوْحِ الله ، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ الله " (الجامع الصحيح).

ونقول لمن كان مريضًا حتى لو كان مرضه عضالا أو مزمنًا : لا تيأس من الشفاء ، وَتَذكَّر ما مَنَّ الله به على سيدنا أيوب (عليه السلام) ، وتمسك

بما دعا به ربه ، واجعله في ذلك لك قدوة ، حيث يقول الحق سبحانه :

"وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ" (الأنبياء:٨٣،٨٤).

وإن كنت عقيمًا لا تنسى ما منَّ الله (عز وجل) به على سيدنا زكريًا (عليه السلام) مع ما كان عليه من تقدم في السن وعقم بالزوج لا يرجى معه ولد ، وذلك حين نادى زكريا (عليه السلام) ربه : " قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا " (مريم :٤-٦) ، وحيث يقول الحق سبحانه :" وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا

خَٰشِعِينَ "(الأنبياء : ٨٩، ٩٠).

والطبيعي أن المرأة العقيم التي لا تنجب تعالج أولاً من العقم ثم يكون الإنجاب ، لكن النص القرآني لم يَسر على هذه الوتيرة أو هذا النسق ، وإنما قال سبحانه:" وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓ" (الأنبياء: ٩٠). ، فقدم البشرى بالولد على إصلاح الزوج ، وكأنه سبحانه يعلمنا أنه قادر على أن يعطي الولد بأسباب وبلا أسباب ، أصلح الزوج أو لم يصلحها ، " إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ " (يس :٨٢) ، وهو ما حكاه القرآن الكريم في قصة إبراهيم (عليه السلام) حين بشرته الملائكة بالولد مع تقدم سنه ، حيث يقول الحق سبحانه :" وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١ قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ٧٢ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ "(هود : ٧١-٧٣) .

وإن كان الإنسان في ضيق أو فاقة ، فليعلم أن خزائن الله ملأى لا تنفد أبدا ، وأن الأيام دول بين عسر ويسر ، فغني اليوم قد يكون فقير الغد ، وفقير اليوم قد يكون غني الغد ، قال الشاعر:

ألمْ ترَ أنَّ الفقـرَ يُرجى له الغِنَـى

وأنَّ الغنى يُخشى عَليهِ مِنَ الفقـر

ويقول الحق سبحانه : " وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ " (الطلاق: ٢،٣) ، ويقول سبحانه : " وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا " (الطلاق: ٤) ، ويقول سبحانه: " مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ "(فاطر:٢) .

وإن قيل لكم : إن الناس قد جمعوا لكم وتألبوا عليكم فاخشوهم ، فلكم في رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه أسوة حسنة ، حيث يقول الحق سبحانه : " ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ۝١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ " (آل عمران : ١٧٣-١٧٤) .

وسئل أحد الصالحين: أي آية في القرآن الكريم أرجى؟، فقال : قوله سبحانه وتعالى :" قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن

رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ " (الزمر : ٥٣).

فيجب أن نتحلى بالأمل في غد أفضل ، ومستقبل مشرق ، وفتح من الله قريب ، لا نيأس ولا نجزع ، ولا نتشاءم ، لأن عدونا يريد أن يصل بنا إلى اليأس والإحباط ، وأنه لا جدوى ولا أمل لنخضع ونستسلم ، غير أن ديننا وثقافتنا لا يعرفان لليأس طريقًا ، فنحن ذوو أمل كبير ، يقول الشاعر:

قــال: السَّمــاءُ كئيبـــةٌ ! وتجهَّمَـــا
قلـت: ابتَسِمْ يكْفِي التَّجهُّمُ في السَّمـــا
قـــال: الليَالـِي جرَّعتنـي عَلقَمـــا
قلـــت: ابتَسِـمْ ولئن جُرِّعْتَ العَلْقَمَـــا
فلَعَـــلَّ غَيْـــرَكَ إن رآك مُرنّمـــا
طَـــرَحَ الكآبَـةَ جانبًـا وتَرنَّمَـــا

غير أن الأمل يحتاج إلى عمل ، لأن الأمل بلا عمل كجسد بلا ساق ، لا يقوم له قوام ، مما يجعلنا ندعو وبشدة إلى الأمل المبني على العمل والأخذ بالأسباب ، وإلا كان أملاً أجوف لا طائل منه ، فقد كان سيدنا عمر (رضي الله عنه) يقول : لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول : اللهم ارزقني فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : "هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ " (الملك : ١٥) ، وقد جمع الحق سبحانه وتعالى في كتابه الكريم بين الباحثين عن الرزق الحلال والمجاهدين في سبيل الله ، فقال سبحانه : "عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ " (المزمل: ٢٠) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُوا خِمَاصا وَتَرُوْحُ بِطَانا " (رواه الترمذي) ، قال أهل العلم : إن الطير هنا تأخذ بالأسباب فهي تغدو وتروح، ولا تمكث كسالى في أعشاشها وأوكارها وتقول : اللهم ارزقني ، فما أحوجنا إلى الأمل والعمل معًا ، الأمل الذي يستجلب الهمة والنشاط ، والعمل الذي نعمر به الكون ، ونبني به الحضارة، ونصلح أمر ديننا ودنيانا.

* * *

□

حســـــن الخـــاتمـــة

الأعمال بخواتيمها ، وخير الناس من طال عمره وحسن عمله ، وختم له بحسن العاقبة ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا "(سنن ابن ماجة) ، وكان (صلى الله عليه وسلم) يقول :" يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ وَطَاعَتِكَ "، فَقِيلَ لَهُ : يَا رَسُولَ الله : إِنَّكَ تُكْثِرُ أَنْ تَقُولَ : " يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ وَطَاعَتِكَ "، قَالَ : "وَمَا يُؤَمِّنِّي، وَإِنَّمَا قُلُوبُ الْعِبَادِ بَيْنَ أُصْبُعَيْ الرَّحْمَنِ ، إِنَّهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُقَلِّبَ قَلْبَ عَبْدٍ قَلَّبَهُ "(مسند أحمد) ، ويقول نبينا (صلي الله عليه وسلم) : " كَانَ رَجُلَانِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَآخِيَيْنِ ، فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُذْنِبُ ، وَالْآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِي الْعِبَادَةِ ، فَكَانَ لَا يَزَالُ الْمُجْتَهِدُ يَرَى الْآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ ، فَيَقُولُ: أَقْصِرْ فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ ، فَقَالَ لَهُ : أَقْصِرْ ، فَقَالَ: خَلِّنِي وَرَبِّي ، أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا؟، فَقَالَ : والله لَا يَغْفِرُ اللهُ لَكَ أَوْ لَا يُدْخِلُكَ اللهُ الْجَنَّةَ، فَقَبَضَ اللهُ أَرْوَاحَهُمَا ، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، فَقَالَ لِهَذَا الْمُجْتَهِدِ: أَكُنْتَ بِي عَالِمًا ؟ ، أَوْ كُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدِي قَادِرًا ؟، وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ :

اذْهَبْ فَادْخُلْ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلْآخَرِ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ" ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ " (مسند أحمد).

ويضرب القرآن الكريم مثلاً لسوء العاقبة فيقول تعالى : " أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ " (البقرة : ٢٦٦).

ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " مَنْ مَاتَ عَلَى شَيْءٍ بَعَثَهُ الله عَلَيْهِ" (مسند أحمد) ، فالشهيد يأتي يوم القيامة وجرحه يثغب دمًا ، اللون لون الدم، والريح ريح المسك ، ومن مات حاجًّا بُعِثَ يوم القيامة مُلبيًا ، وهكذا في سائر أعمال الخير ، فلينظر كل واحد منَّا في الحال التي يرجو أن يبعث عليها ، ولو فكر كل واحد منَّا في ذلك جيدًا فيما يجب أن يرى نفسه عليه ، وما لا يجب أن يرى نفسه عليه عند لقاء الله (عز وجل) يوم القيامة لما أقدم على عمل سوء أو منكر أو قبيح قط ، ولا اجتهد أن يكون على الصورة التي يحب أن يلقى الله (عز وجل) عليها .

وليس الأمر في حسن الخاتمة مقصورًا على أعمال العبادات من صلاة وصيام وحج ودعاء وذكر وقراءة قرآن ، أو محصورًا في هذه الأمور فحسب، إنما حسن الخاتمة يتجاوز ذلك إلى كل عمل يقوم به الإنسان ، فمن كان يكفل يتيمًا فلا ينبغي أن يتركه في منتصف الطريق بلا عذر ، إنما عليه أن يأخذ بيده إلى أن يبلغ رشده ويقوى على حمل أمره ، وكذلك من يقوم على شأن طالب علمٍ فقيرٍ ، فليجتهد أن يواصل الخير معه إلى أن يحصل على أعلى الدرجات العلمية ما دام هذا الطالب مؤهلاً لذلك ، وكذلك من يعمد إلى بناء مسجد أو مشفى أو دار سكن لإيواء غير القادرين أو أطفال الشوارع أو سكان بعض العشوائيات ، كل هؤلاء عليهم ألا يتوقفوا في منتصف الطريق وألا يصابوا بالفتور ، إنما عليهم أن يواصلوا العمل ما وسعهم ذلك ، وكذلك حال من يعلم العلم أو الفقه أو القرآن الكريم .

وليدرك الإنسان أنه كلما دنا أجله كان أكثر حاجة أن يبذل جهدًا أكبر في الخير ، نسأل الله (عز وجل) أن يوفقنا لعملٍ صالحٍ ثم يقبضنا عليه غير ضالين ولا مضلين ، ولا مغيرين ولا مبدلين ، ولا فاتنين ولا مفتونين ، وأن يتقبل صلاتنا وصيامنا وركوعنا وسجودنا ، وأن يرزقنا الدوام على طاعته ، فخير الأعمال ما داوم عليه صاحبه وإن قلّ.

* * *

□

حق الطريق والمرافق العامة

يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) :"الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ"(صحيح مسلم) ، ولما سأله أحد الناس: يا رسول الله ، دلَّني على عمل يدخل الجنة ، فقال له (صلى الله عليه وسلم) : " أَمِطِ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ" (مسند أحمد) ، وقال (صلى الله عليه وسلم) :"أَمِطِ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ " (مسند أحمد) ، ونهى (صلى الله عليه وسلم) عن التبول أو التغوط في الطريق لما في ذلك من أذى الناس ، وقال (صلى الله عليه وسلم) يومًا لأصحابه (رضوان الله عليهم) :" إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي الطُّرُقَاتِ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ الله مَا لَنَا بُدٌّ مِنْ مَجَالِسِنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا ، قَالَ رَسُولُ الله (صلى الله عليه وسلم) : " فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلاَّ الْمَجْلِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ ، قَالُوا وَمَا حَقُّهُ ؟ قَالَ : غَضُّ الْبَصَرِ وَكَفُّ الأَذَى وَرَدُّ السَّلاَمِ وَالأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ" (متفق عليه).

فثمة آداب عامة يجب أن نتحلى بها في الطرقات والحدائق والأماكن العامة ، منها : الحفاظ على المكان ، وتركه أنظف مما كان ، والتعامل معه تعامل الإنسان مع ماله الخاص ، وعدم الإسراف في أي خدمة تقدم في إطار المرفق العام من مياه أو كهرباء أو خلافه .

ومن الآداب العامـة ، غض البصـــر ، وكف الأذى ، سـواء أكان كفًّـا للأذى عن طريق نفسه ، أم كفًّا لأذى الإنسان نفسه عن الناس ، فالمسلم الحقيقي من سلم الناس من لسانه ويده ، ومنهـا رد السلام ، حيث يقول الحق سبحانه :" وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ" (النساء:٨٦) ، لا أن يكون حالنا كحال من يتعامل ـ حتى مع السلام ـ بنفعية وقياس لمنازل الناس ، على حد قول الشاعر :

يُحَيَّـا بالسَّلامِ غَنيّ قَـومٍ ويُبخَلُ بالسَّلامِ عَلى الفَقِير

أليْسَ الموتُ بَينهُما سَواءٌ إذا مَاتُوا وصَارُوا في القُبور

وقد قالوا : أبخل الناس من يبخل بالسلام ، لأنه يبخل باليسير الذي لا يكلفه شيئًا .

ومن أهم آداب الطريق الالتزام بقواعد وتعليمات السير فيه ، وعدم الاعتداء عليه ، أو تضييقه ، أو التعدي عليه بالبناء ، أو أي لون من ألوان الاستغلال غير القانوني ، أو إعاقة السير فيه ، كعمل بعض المطبات غير المطابقة للمواصفات ، بعيدًا عن الجهات المسئولة عن الطريق .

وإذا كان النبي (صلى الله عليه وسلم) قد جعل إماطة الأذى عن الطريق صدقة ، وجعله شعبة من شعب الإيمان ، وسبيلاً لدخول الجنة ، فإن الاعتداء على حق الطريق أو المرافق العامة وفق مفهوم المخالفة عند

الأصوليين يوقع صاحبه في الإثم ويعرضه لسخط الله (عزّ وجلّ) ، كونه معتديًّا على الحق العام أو النفع العام ، ويتخذ لنفسه منه خصماء عند الله (عز وجل) في الدنيا والآخرة ، حيث يعرض نفسه لسخط الله وسخط الناس.

وكل ما هو حق للطريق هو حق للأماكن والحدائق والمتنزهات والمصايف والمنتديات العامة ، وكل ما يجمع الناس ، إذ ينبغي على كل إنسان أن يحرص على نظافة وسلامة المكان الذي يكون فيه ، وأن يحرص على عدم أذى الناس ، بل يحرص كل الحرص على مساعدتهم ، وإكرامهم ، وأن يكون صورة إيجابية مشرفة لدينه ووطنه ، فالإسلام ليس كلامًا ، إنما هو فعل وسلوك يعبر عن مدى تمسك صاحبه بالمبادئ والقيم السامية والأخلاقية الكريمة ، من عفة اليد واللسان والبصر ، وطيب الحديث وسخاء النفس ، يضاف إلى ذلك الحرص على سلامة المرافق العامة باعتبارها مالا عامًا يجب الحفاظ عليه .

ويلحق بالمرافق العامة ، المرافق الخاصة المشتركة ، كمن يشتركون في مسقى أرض ، أو طريق زراعي ، أو مداخل العمارات والأبنية ، أو الحدائق المحيطة بها ، أو سلم العمارة أو سطحها أو مصاعدها ، فكل ذلك يقتضي التعاون في صيانتها وحسن استخدامها والحفاظ عليها ، وألا يحاول أحد أن يكون عالة على الآخرين فيها ، أو أن يجور على حقهم في استخدامها ، فخير

الناس خيرهم لأهله ، وخيرهم لجيرانه ، ويكفى أن نبينا (صلى الله عليه وسلم) قد قال : " وَاللهِ لاَ يُؤْمِنُ ، وَاللهِ لاَ يُؤْمِنُ ، وَاللهِ لاَ يُؤْمِنُ " قِيلَ: مَنْ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : " الَّذِي لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ "، قِيلَ : وَمَا بَوَائِقُهُ؟ قَالَ: شَرُّهُ " (متفق عليه) ، وسأل أحد الناس النبي (صلى الله عليه وسلم) قائلاً :" يَا رَسُولَ اللهِ مَتَى أَكُونُ مُحْسِنًا ؟، قَالَ :" إِذَا قَالَ جِيرَانُكَ: أَنْتَ مُحْسِنٌ ، فَأَنْتَ مُحْسِنٌ ، وَإِذَا قَالُوا : إِنَّكَ مُسِيء ، فَأَنْتَ مُسِيء" (صحيح ابن حبّان) ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : " مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ " (متفق عليه) .

* * *

سـلامة الصـدر

سلامة الصدر أحد أهم أسباب رضا الإنسان عن نفسه ورضا الله (عز وجل) عنه ، ذلك أن نبينا (صلى الله عليه وسلم) قال لأصحابه يومًا : "يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ " ، فدخل رجل فتبعه سيدنا عبد الله بن عمر بن الخطاب (رضي الله عنهما) ليقف على ما أوصله إلى هذه المكانة الرفيعة ، فنزل عليه ضيفًا ليرقب أعماله ومدى اجتهاده في عبادته ، فما وجد مزيد صلاة أو صيام أو صدقة ، فحدث ابن عمر (رضي الله عنهما) مضيفه عن سر نزوله عنده وأخبره بما كان في شأنه من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وسر نزوله عليه ، فقال يا ابن عمر : مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ ، غَيْرَ أَنِّي لَا أَجِدُ فِي نَفْسِي لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ غِشًّا ، وَلَا أَحْسُدُ أَحَدًا عَلَى خَيْرٍ أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهُ " (مسند أحمد) .

وقد تتعقد الأمور بين بعض الأشخاص أو بعض القبائل بما يكون بينها أو بينهم من ثأر وخصومات ، حتى يظن أكثر المتفائلين أنه الطريق الذي لا رجوع عنه ، وينسون أو يتناسون أن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن ، إذا أراد أن يقلِّب أو يحوِّل قلبَ عبدٍ حوَّله ، وهو ما كان منه سبحانه حين ألّف بين قلوب الأوس والخزرج على ما كان بينهم من ثارات متعددة ، وتاريخ طويل من الإحن والعداوة والبغضاء ، فقال سبحانه

مخاطبًا نبينا محمدًا (صلى الله عليه وسلم) وممتنًا عليه بتأليف القلوب على يديه : "وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" (الأنفال:٦٣) ، ويقول سبحانه حاثًا على الوحدة ممتنا على عباده بتحقيقها لهم ، فقال سبحانه:"وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ " (آل عمران:١٠٣) .

وسلامة الصدر لا يمكن أن تبنى على التوجس والتربص والتحسس وسوء الظن ، حيث يقول الحق سبحانه : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ۖ "(الحجرات:١٢) ، كما لا يمكن أن تُبنَى على عدم التسامح ، إنما تبنى على الصفح الجميل ، وحتى الهجر الجميل ، ولين الجانب ، ومقابلة السيئة بالحسنة ، فالصفح الجميل : هو الذي لا مَنَّ معه ، حيث يقول الحق سبحانه : " فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ " (الحجر:٨٥)، والهجر الجميل هو الذي لا أذى معه ، حيث يقول

سبحانه وتعالى : " وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا " (المزمل:١٠) .

وكذلك تبنى سلامة الصدر على لين الجانب ، حيث يقول الحق سبحانه مخاطبًا حبيبنا (صلى الله عليه وسلم) : " فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ " (آل عمران:١٥٩).

كما تقوم سلامة الصدر على العفو والصفح ومقابلة السيئة بالحسنة ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى : "وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ " (فصلت: ٣٤،٣٥) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) :" اتَّقِ الله حَيْثُمَا كُنْتَ ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا ، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ" (سنن الترمذي).

كما أن على الإنسان أن يدرك أن ثمة فرقًا واسعًا بين قلب يحمل العداوة والبغضاء ، وقلب يحمل الحب والتسامح مع الناس جميعًا ، حيث يقول نبينا

(صلى الله عليه وسلم) :"لاَ يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثِ لَيَالٍ، يَلْتَقِيَانِ: فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا ، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلاَمِ" (صحيح البخاري) .

مع التأكيد على أن سلامة الصدر ترتبط غاية الارتباط بالرضا بما قسم الله ، وإدراك الإنسان أن الأمر كله بيد الله (عز وجل) وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى : " إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ " (يس:٨٢)، وحيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بشيء لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيء قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بشيء لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بشيء قَدْ كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ" (سنن الترمذي) .

على أن هناك أمورًا قد تعين على تحقيق سلامة الصدر ، فعدل الأب بين أبنائه يورثهم سلامة الصدر بعضهم تجاه بعض ، وعدل المعلم تجاه طلابه يورثهم سلامة الصدر بعضهم تجاه بعض ، وعدل المسئول بين مرءوسيه وصاحب العمل تجاه عماله يورثهم سلامة الصدر ، والإحسان يورث سلامة الصدر ، وقد قالوا : أحسن إلى من شئت تكن أميره ، واستغن عمن شئت تكن نظيره ، واحتج إلى من شئت تكن أسيره.

ومن الأمور التي تعين على سلامة الصدر الكلمة الحلـوة الرقيقـة والقـول الحسن "وَقُولُواْ لِلنَّـاسِ حُسْـنًا " (البقرة:٨٣)، وإفشاء السلام "أفشوا السلام بينكم تحابوا" (الجامع لابن وهب) ، وإطعام الطعام ، وإكرام الصغير ، وقد قالوا : أكرم صغير القوم يكرمك كبيرهم وينشأ على محبتك صغيرهم ، ومما يورث سلامة الصدر: التواضع والبعد عن الكبر والاستعلاء على الناس ، ومن أهم ما يورث سلامة الصدر ويؤلف بين القلوب احترام إنسانية الإنسان وآدميته ، وعدم إحراجه أو تنقيصه ، بل العمل على رفع الحرج وإزالته عنه ، والتماس الأعذار له ، وقد قالوا : التمس لأخيك عذرًا إلى سبعين عذرٍ ، فإن لم تجد له عذرًا فقل : لعله كذا ، لعله كذا ، فخير الناس أعذرهم للناس ، وأسلمهم صدرًا وأرضاهم نفسًا.

* * *

البر والوفاء

البر والوفاء من صفات الرسل والأنبياء ، وقد امتدح الله (عز وجل) أبا الأنبياء سيدنا إبراهيم (عليه السلام) فقال سبحانه :" وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ " (النجم : ٣٧) ، وامتدح سيدنا إسماعيل عليه السلام فقال سبحانه : " وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا " (مريم : ٥٤) ، وقال في شأن سيدنا يحيى (عليه السلام) : "يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا " (مريم : ١٢-١٥) ، وقال سبحانه على لسان سيدنا عيسى عليه السلام: " قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا " (مريم : ٣٠-٣٣) ، وكان سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أوفى الناس بالناس ، وأبر الناس بالناس ، أوفى الناس وأبرهم لأهله ، ولأصحابه ، ولأمته ، وللناس أجمعين .

وقد أمرنا سبحانه بالوفاء بالعهود والعقود والأمانات ، فقال سبحانه: " يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ " (المائدة : ١)، وقال سبحانه : " وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ " (البقرة : ٤٠) ، وقال سبحانه : " إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا " (النساء : ٥٨) ، ونهانا سبحانه عن خلف الوعود ، ونكث العهود ، وخيانة الأمانات ، فقال سبحانه: "يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ " (الأنفال : ٢٧) ، وقال سبحانه :" وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ٩١ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ" (النحل : ٩١، ٩٢).

ويبين لنا نبينا (صلى الله عليه وسلم) أن خلف الوعد ونكث العهد وخيانة الأمانة من أخص صفات المنافقين ، فقال :" آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاَثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ" (متفق عليه) ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : " أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ

فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا ، إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ" (متفق عليه) ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : " لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ" (مسند أحمد) ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : " الْخَازِنُ الأَمِينُ الَّذِي يُؤَدِّي مَا أُمِرَ بِهِ طَيِّبَةً نَفْسُهُ أَحَدُ الْمُتَصَدِّقَيْنِ" (صحيح البخاري) .

ولما أُذن له (صلى الله عليه وسلم) بالهجرة من مكة إلى المدينة ترك ابن عمه الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) ليرد الأمانات إلى أصحابها ، وكان (صلى الله عليه وسلم) أوفى الناس وأكرمهم لأصحابه وأزواجه والناس أجمعين ، فقد كانت عجوز تأتيه (صلى الله عليه وسلم) في بيت عائشة (رضي الله عنها) فكان (صلى الله عليه وسلم) يهش لها ويكرمها ويقول : "إنها كانت تأتينا على عهد خديجة " (المستدرك للحاكم) .

وقد ضرب لنا القرآن مثلا فيه متعظ كبير ، حيث يقص علينا الحق سبحانه قصة من عاهد الله لئن أتاه من فضله ليصدقن وليكونن من الصالحين ، فلما أنعم الله عليه ومَنّ عليه بالفضل والعطاء الوفير انقلب على وجهه ، فخسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين ، حيث يقول الحق سبحانه مصورًا ذلك في سورة التوبة التي فضحت وكشفت النفاق والمنافقين : "وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ

وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ "(التوبة: ٧٥،٧٧).

وقد علمنا ديننا الحنيف أن نكون أوفياء لكل من يسدي لنا جميلاً أو معروفًا ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : "مَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ" (سنن أبي داود) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : "لا يَشْكُرُ الله مَنْ لا يَشْكُرُ النَّاسَ" (سنن أبي داود).

وقد ضرب لنا النبي (صلى الله عليه وسلم) أعظم المثل في ذلك في وفائه لزوجه خديجة (رضي الله عنها) حيث كان يقول عنها : " آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِي النَّاسُ ، وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ ، وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ ، وَرَزَقَنِي الله عَزَّ وَجَلَّ منها الولد" (مسند أحمد) ، وعن عائشة (رضي الله عنها) أن امرأة جاءت إلى بيت النبي (صلى الله عليه وسلم) فسألها عليه الصلاة والسلام : "من أنت؟" قالت : جَثَّامَةُ الْمُزَنِيَّةُ ، قَالَ : " بَلْ أَنْتِ حَسَّانَةُ الْمُزَنِيَّةُ ، كَيْفَ أَنْتُمْ ؟ كَيْفَ حَالكُمْ ؟ كَيْفَ كُنْتُمْ بَعْدَنَا؟ قَالَتْ : بِخَيْرٍ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ الله ، قَالَتْ : فَلَمَّا خَرَجَتْ قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله ، تُقْبِلُ عَلَى هَذِهِ الْعَجُوزِ هَذَا الإِقْبَالَ ؟ فَقَالَ : يَا عَائِشَةُ ، إِنَّهَا كَانَتْ تَأْتِينَا زَمَانَ

خَدِيجَةَ ، وَإِنَّ حُسْنَ الْعَهْدِ مِنَ الإِيمَانِ " (المستدرك للحاكم) ، وكان (صلى الله عليه وسلم) يقول: " إِنَّ الله بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ ، فَقُلْتُمْ : كَذَبْتَ ؛ وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : صَدَقْتَ ؛ وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ" فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِي صَاحِبِي" مَرَّتَيْنِ. فَمَا أُوذِيَ بَعْدَهَا " (صحيح البخاري) .

وكان النبي (صلى الله عليه وسلم) وفيًّا لكل من أحسن إليه ، ومن ذلك: وفاؤه لرجل مشرك أحسن إليه وهو المطعم بن عدي الذي أجاره وأدخله جواره عند عودته من الطائف إلى مكة ، فلما كلمه بعض الناس في أسرى بدر قال (صلى الله عليه وسلم) : " لَوْ كَانَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا، ثُمَّ كَلَّمَنِي فِيهم ، لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ " (صحيح البخاري) .

وأيضًا وفاؤه حتى لمن أساءوا إليه من بني وطنه من أهل مكة ، فعندما دخلها فاتحًا منتصرًا قال يا أهل مكة :" مَا تَرَوْنَ أَنِّى صَانِعٌ بِكُمْ؟). قَالُوا: خَيْرًا ، أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ ، قَالَ :" اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ " (السنن الكبرى للبيهقي).

وقد سار أصحابه على هذا الوفاء ، ومن ذلك ما كان من سيدنا عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) الذي خرج في سفر ومعه مالك بن دينار ، فلقيه أعرابي ، فهش له ابن عمر وأكرمه وأحسن لقاءه ، وخلع عمامته وأهداه إياها ، ثم أعطاه دابته التي كان يركبها ، فقال له ابن دينار لقد

أحسنت وزدت ، وإن هؤلاء الأعراب يرضون باليسير ، فقال ابن عمر (رضي الله عنهما) : إن أبا هذا كان ودًا لعمر ، وإني سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول :" إِنَّ أَبَرَّ البِرِّ ، أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ أَهْلُ وُدِّ أبيه" (صحيح مسلم) .

ومن أهم ألوان البر والوفاء ، البر بالوطن والوفاء له ، على أن الوفاء للوطن يقتضي الإسهام الجاد في كل ما يدعم أمنه واستقراره وتقدمه وازدهاره .

* * *

إفشاء السلام منهج حياة

إفشاء السلام ليس مجرد شعار إنما هو قيمة إنسانية راقية ، حرص ديننا الحنيف على ترسيخها ، فعن سيدنا عبد الله بن سلام (رضي الله عنه) قال: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللهَّ (صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) الْمَدِينَةَ انْجَفَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ وَقِيلَ: قَدِمَ رَسُولُ اللهَّ (صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لِأَنْظُرَ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا اسْتَبَنْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللهَّ (صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ، فَكَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ (رواه ابن ماجه).

ألا ترى هنا إلى حديث من وصفه ربه (عز وجل) بأنه لا ينطق عن الهوى ، وهو يجعل سبيل الدخول إلى جنته في أربعة أمور ، ثلاثة منها تتصل بالرقي في المعاملة مع الخلق ، وهي : إطعام الطعام ، وإفشاء السلام ، وصلة الأرحام ، وواحدة فيما بين العبد وربه وهي الصلاة بالليل والناس نيام ، مع تقديم الثلاثة على هذه الواحدة ، وما ذاك إلا لحرص الإسلام على العلاقات الإنسانية السوية ، بل أبعد من هذا يحثنا ديننا على إلقاء السلام على من عرفنا ومن لم نعرف ، ويجعل شعار السلام وإلقاءه على الناس علامة الإيمان البارزة الساطعة ، قال تعالى : " وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ

لَسْتَ مُؤْمِنًا " (النساء : ٩٤) ، وحث على مبادلة التحية بأحسن منها أو ردها على أقل تقدير حيث يقول الحق سبحانه وتعالى : " وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا " (النساء : ٨٦).

وقد جعل الإسلام للسلام أسسا تندرج جميعها تحت مظلة الرقي الإنساني، بأن يسلّم الصغير على الكبير، والراكب على الماشي (المترجل)، والماشي على الجالس، والواحد على الجماعة، وقالوا: من حق الأخ على أخيه أنه إذا لقيه أن يسلم عليه، وأن يفسح له في المجالس، بل حذر الإسلام تحذيرًا كبيرًا من الإعراض والتجاهل عن إلقاء السلام أو رده، فقال نبينا (صلى الله عليه وسلم): "لَا يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ، يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا ، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ" (صحيح البخاري) .

وقد سمى رب العزة نفسه في أسمائه الحسنى السلام ، فقال سبحانه وتعالى : " هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا " (الحشر:٢٣)، والجنة هي دار السلام ، قال تعالى: "لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ

رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ " (الأنعام: ١٢٧) ، وتحية المؤمنين فيها السلام ، يقول سبحانه: "وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۚ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ " (يونس : ١٠) ، وتحية المؤمنين عند لقاء ربهم السلام ، يقول سبحانه :" تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا " (الأحزاب: ٤٤) ، ويقول تعالى : " وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ " (الرعد : ٢٣، ٢٤).

إذن فإفشاء السلام قيمة ، ومنهج حياة ، وسبيل نجاة ، على أن يكون سلامًا حقيقيًا لا شكليًّا ، وأن يستحضر من يلقي السلام قيم السلام ، وأن يكون الإنسان سلامًا حتى مع الحيوان والجماد ومع الكون كله ، فلا يقطع شجرًا ، ولا يحرق زرعًا ، ولا يخرب عامرًا ، ولا يهدم بنيانًا ، ولا يؤذي طائرًا أو بهيمة أو إنسانًا ، بل يكون سلمًا وسلامًا مع نفسه ومع الكون كله ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ " (البقرة: ٢٠٨) .

* * *

الجمال والبهجة والذوق السليم

الإسلام دين الحضارة والرقي ، دين الكمال والجمال ، دين البهجة والسعادة ، وكل نصوصه وتوجيهاته وطرقه ومسالكه تؤدي إلى ذلك ، بل إن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة قد أكدا هذه المعاني ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز : " وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ " (النحل :٥- ٦)، ويقول سبحانه وتعالى : "ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ "(طه :٥٣) ، " وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ "(ق:٧) ، ويقول سبحانه وتعالى : " وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ " (النمل:٦٠) ، ويقول سبحانه : "أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ " (الغاشية : ١٧- ٢٠) ، ويقول سبحانه : " مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ " (الملك : ٣) ، ويقول تعالى في شأن السماوات العلا : " وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ " (الحجر: ١٦) ، " وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ "(فصلت:١٢).

بل لقد أمرنا القرآن الكريم بأن نتجمل أحسن التجمل ، وأن نأخذ زينتنا عند كل مسجد ، فقال سبحانه : " يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ " (الأعراف:٣١ ،٣٢)، وعندما قال نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ ، قَالَ رَجُلٌ : إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا ، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً ، قَالَ : إِنَّ الله جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ" (صحيح مسلم) ، ولما أخبره سيدنا الْمُغِيرَةُ بْن شُعْبَةَ (رضي الله عنه) أَنَّهُ خَطَبَ امْرَأَةً ، فَقَالَ له النَّبِيُّ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : "انْظُرْ إِلَيْهَا فَإِنَّهُ أَحْرَى أَنْ يُؤْدَمَ بَيْنَكُمَا " (رواه الترمذي) .

وكان (صلى الله عليه وسلم) يحب الطيب ، وقد دعا إلى طلاقة الوجه والمحيا ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : " لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ" (صحيح مسلم) ، وجعل إدخال السرور على الناس من أعظم القربات إلى الله (عز وجل) ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : " من أدخل السرور على مسلم كان على الله (عز وجل) أن يرضيه يوم

القيامة " (مسند الشهاب) ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : " ... وَأَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى الله (عز وجل) سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ" (المعجم الصغير للطبراني) ، ودعا (صلى الله عليه وسلم) أصحابه إلى لبس أحسن الثياب عند حضور الجُمع والأعياد والمناسبات العامة .

على أن الجمال الحقيقي لا يقف عند حدود الشكل ، إنما يتجاوزه إلى جمال الجوهر ، وجمال المعدن ، وجمال الأخلاق ، وجمال الطباع ، يقول مصطفى صادق الرافعي (رحمه الله) : إن خير النساء من كانت على جمال وجهها في أخلاق كجمال وجهها وكان عقلها جمالا ثالثا ، فهذه المرأة إن أصابت الرجل الكفء ، يسرت عليه ، ثم يسرت ، ثم يسرت ، ويقول الشاعر:

إِذا المَرءُ لَم يُدَنَّس مِنَ اللُؤمِ عِرضُه
فَكُـــلُّ رِداءٍ يَرتَديـــهِ جَميـــل
تُعَيِّرُنـا أَنّـــا قَليـلٌ عَديدُنـــا
فَقُلـتُ لَهـا إِنَّ الكِـرامَ قَليـــل
وَما ضَرَّنـا أَنّـا قَليـلٌ وَجارُنـــا
عَزيـزٌ وَجـارُ الأَكثَريـنَ ذَليـــل

فيجب علينا جميعًا أن نتجمل بجمال الإسلام في سمتنا ، وفي مظهرنا ،

وفي بيئتنا ، وفي مدارسنا ، وفي معاهدنا ، وفي حدائقنا ، وفي متنزهاتنا ، وفي أماكننا العامة ، وألا نشوه معالم الجمال والبهجة بما ينفر الطبع السليم والذوق الراقي .

على أن من أهم معالم الذوق والجمال والرقي تخير الكلمة الراقية الحلوة الصافية ، فقد مرَّ سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) على قوم يوقدون نارًا ، فكَرِه أن يقول لهم : السلام عليكم يا أهل النار ، إنما قال : السلام عليكم يا أهل الضوء ، كما دعانا الإسلام إلى تخير الأسماء الحسنة ذات الدلالة الراقية ، وأن نبعد الأسماء المنفرة ، وعن كل ما ينْفُر منه الطبع والذوق والحس الإنساني السليم ، وقد أمرنا القرآن الكريم أن نفعل ما هو أجمل ، وأن نقول ما هو حسن بل ما هو أحسن ، فقال سبحانه : "وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا " (البقرة : ٨٣) ، وقال سبحانه : " وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُۚ " (الإسراء : ٥٣) ، فليكن شعارنا " الذوق والرقي والجمال " ، فالذوق السليم الراقي هو القادر على الإحساس بهذا الجمال ، وعلى إشاعته على من حوله وفي مجتمعه .

* * *

حديث القرآن عن محمد (صلى الله عليه وسلم)

تحدث القرآن الكريم عن النبي (صلى الله عليه وسلم) حديثًا كاشفًا عن مكانته وأخلاقه وكثير من جوانب حياته ، فهو نبي الرحمة ، حيث يقول الحق سبحانه :" وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ "(الأنبياء : ١٠٧) ، ويقول سبحانه : "فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ "(آل عمران:١٥٩)، ويقول (عز وجل) : "لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ " (التوبة : ١٢٨) ، ويقول سبحانه : " وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ " (الحجرات : ٧).

وحين قرأ (صلى الله عليه وسلم) قول الله (عز وجل) في إبراهيم : "رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ

عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ " (إبراهيم : ٣٦) ، وقول الله (عز وجل) على لسان عيسى (عليه السلام) : " إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ " (المائدة : ١١٨) رَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: اللهمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي ، وَبَكَى ، فَقَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ : يَا جِبْرِيلُ ! اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ - وَرَبُّكَ أَعْلَمُ - فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بِمَا قَالَ ، وَهُوَ أَعْلَمُ ، فَقَالَ الله : يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ : إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوءُكَ " (صحيح مسلم) .

وقد أكرمه ربه (عز وجل) حتى في مخاطبته وندائه ، فحيث نادى رب العزة (سبحانه وتعالى) سائر الأنبياء بأسمائهم : " يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ " (البقرة : ٣٥) ، " يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ " (هود : ٤٨) ، " يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا " (الصافات :١٠٤- ١٠٥) ، " يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى " (طه :١١- ١٢) ، " يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ " (مريم : ٧) ، " يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ "(مريم : ١٢) ، "يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ "

(المـائـدة : ١١٠) ، خاطب نبينا (صلى الله عليه وسلم) خطابًا مقرونًا بشـرف الرسـالة أو النبوة ، أو صفة إكرام وتفضل وملاطفة ، فقال تعالى : " يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ " (المائدة : ٦٧) ، "يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا "(الأحزاب : ٤٥) .

وعندما شرَّفَهُ الحق (سبحانه وتعالى) بذكر اسمه في القرآن الكريم ذكره مقرونًا بعز الرسالة ، فقال سبحانه وتعالى :" مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ " (الفتح : ٢٩) ، وقال سبحانه : " وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ " (آل عمران : ١٤٤) ، وأخذ العهد على الأنبياء والرسل ليؤمنن به ولينصرنه ، فقال سبحانه : "وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ " (آل عمران : ٨١) .

وقرن الحق سبحانه وتعالى طاعته (صلى الله عليه وسلم) بطاعته ، فقال سبحانه : " مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ "، وقال سبحانه : " وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ

وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا " (النساء : ٦٩) ، وجعل حبه (صلى الله عليه وسلم) وسيلة لحب الله (عز وجل) ، فقال سبحانه : " قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ " (آل عمران : ٣١) ، وجعل بيعته (صلى الله عليه وسلم) بيعة لله (عز وجل) ، فقال سبحانه :" إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْۚ " (الفتح :١٠)، وكان سيدنا عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) يقول : ثَلَاثُ آيَاتٍ نَزَلَتْ مَقْرُونَةً بِثَلَاثِ آيَاتٍ ، لَا تُقْبَل وَاحِدَةٌ مِنْهَا بِغَيْرِ قَرِينَتِهَا ، أَوَّلُها : "وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ " (البقرة:٤٣) ، وَثانِيها : قَوْله تَعَالَى :" أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ " (لقمان:١٤) ، وَثالِثُها : قَوْله تَعَالَى : "أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ "(النساء: ٥٩) ، فَمَنْ أَطَاعَ الله وَلَمْ يُطِعْ الرَّسُولَ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ.

وقد حذر الحق سبحانه وتعالى من مخالفة أمره (صلى الله عليه وسلم) فقال (عز وجل) :" فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ " (النور : ٦٣) ، مؤكدًا أن الإيمان به (صلى الله عليه وسلم) لا يكتمل إلا بالنزول على حكمه عن رضى وطيب نفس ، فقال سبحانه : " فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ

تَسۡلِيمًا " (النساء : ٦٥) ، ونهى عن رفع الصوت عنده ، فقال سبحانه : "يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ " (الحجرات : ٢ ، ٣) ، وقد سمع الإمام مالك (رحمه الله) رجلا يرفع صوته في مسجد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال: يا هذا إن الله (عز وجل) قد ذم أقوامًا فقال : "يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ " (الحجرات : ٢)، وامتدح أقوامًا فقال :"إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ " (الحجرات : ٣) ، وإن حرمة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ميتا كحرمته حيا ، فتأدب في مسجد رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

ومن إكرام الله (عز وجل) له (صلى الله عليه وسلم) أن جعل رسالته للناس عامة ، حيث كان كل رسول يرسل إلى قومه خاصة ، أما نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) فقد أرسله ربه (عز وجل) إلى الناس عامة ، فقال : " وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا " (سبأ : ٢٨) ،

وختم برسالته الرسالات ، وختم به (صلى الله عليه وسلم) الأنبياء والرسل ، فقال سبحانه وتعالى : " مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ " (الأحزاب : ٤٠).

صلى عليه ربه (عز وجل) بذاته، وأمر ملائكته والمؤمنين بالصلاة عليه ، فقال سبحانه : " إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا " (الأحزاب : ٥٦) ، وجعل صلاته على المؤمنين رحمة وسكينة لهم ، فقال سبحانه :" وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ "(التوبة : ١٠٣).

فعلينا بالإكثار من الصلاة والسلام على الحبيب (صلى الله عليه وسلم)؛ لأن من صلى على النبي (صلى الله عليه وسلم) صلاة صلى الله بها عليه عشرًا ، كما أن صلاتنا معروضة عليه (صلى الله عليه وسلم) ، وكان (صلى الله عليه وسلم) يقول : " إِذا سمِعْتُمُ النِّداءَ فَقُولُوا مِثْلَ ما يَقُولُ ، ثُمَّ صَلُّوا عليَّ ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عليَّ صَلاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عشْـرًا ، ثُمَّ سلُوا اللهَ لي الْوسِيلَةَ ، فَإِنَّهَا مَنزِلَةٌ في الجنَّةِ لا تَنْبَغِي إِلاَّ لعَبْدٍ منْ عِباد اللهِ وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُو ، فَمنْ سَأَل ليَ الْوسِيلَة حَلَّتْ لَهُ الشَّفاعَةُ " (صحيح مسلم) .

□

الخـوف من اللّه

الخوف من الله (عزّ وجلّ) طريق السالكين والعارفين والواصلين ، وهؤلاء هم أولياؤه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، حيث يقول سبحانه :" أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ " (يونس:٦٢ ـ ٦٤).

فالأولياء أخص صفاتهم التقوى التي هي الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل .

والمؤمنون خاشعون ، وجلون ، أرقاء القلوب ، ليسوا غلاظًا ولا قساة ، حيث يقول الحق سبحانه :" إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ " (الأنفال:٢ ـ ٤).

ويقول سبحانه :" ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ " (الزمر:٢٣) ، ويقول سبحانه : " لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ " (الحشر:٢١) ، ويقول سبحانه : "أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ " (الحديد:١٦) .

الخوف من الله طريق الصلاح والتقوى ، وهو الحصن الواقي من الزلل فمن خاف الله (عزّ وجلّ) لا يمكن أن يقدُمَ على سفك الدم ، أو قتل النفس التي حرم الله ، ولا يزني ، ولا يسرق ، ولا يغش ، ولا يكذب ، ولا يخون ، حيث يتحدث القرآن الكريم عن صفات عباد الرحمن فيذكر منها : "وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ

وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا " (الفرقان:٦٨ ـ ٧٢).

ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) :"اسْتَحْيُوا مِنَ الله (عَزَّ وَجَلَّ) حَقَّ الْحَيَاءِ "، قَالَ : قُلْنَا : يَا رَسُولَ الله ، إِنَّا نَسْتَحِي ، وَالْحَمْدُ لله ، قَالَ : "لَيْسَ ذَلِكَ ، وَلَكِنْ مَنِ اسْتَحْيَى مِنَ الله حَقَّ الْحَيَاءِ ، فَلْيَحْفَظِ الرَّأْسَ وَمَا حَوَى، وَلْيَحْفَظِ الْبَطْنَ وَمَا وَعَى ، وَلْيَذْكُرِ الْمَوْتَ وَالْبِلَى ، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيَا مِنَ الله (عَزَّ وَجَلَّ) حَقَّ الْحَيَاءِ " (مسند أحمد) .

ومن ثم فإنه يجب على الإنسان أن يراقب الله تعالى حق المراقبة في السر والعلن ، في الرضا والغضب ، في الصحة والمرض ، في السعة والضيق ، فهو سبحانه وتعالى يعلم السر وأخفى ، حيث يقول (عزّ وجلّ): " وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى " (طه : ٧) ، ويقول سبحانه : "وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ

عَتِيدٌ " (ق : ١٦ـ ١٨) ، ويقول سبحانه : " مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ " (المجادلة:٧)، ويقول سبحانه على لسان سيدنا لقمان في وصيته لابنه : "يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ " (لقمان : ١٦).

وهـذا كتاب الله (عز وجل) يحذرنـا من الغفلة ، أو الميـل إلى أهلهـا ، فيقول سبحانه مخاطبًا نبينا (صلى الله عليه وسلم) :" وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا " (الكهف :٢٨) ويقول سبحانه : " وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ " (طه:١٢٤-١٢٧) ، فالسعيد من وعظ

بغيره ، والشقي من وعظ بنفسه ، أي أنه لا يعتبر ولا يتعظ حتى يبغته الأجل ، فيندم حين لا ينفع الندم ، فيقول :" رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ " (المنافقون : ١٠ ، ١١) ، وعندما نزل قول الله تعالى : " إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ " (آل عمران : ١٩٠، ١٩١) ، قال نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا" (صحيح ابن حبان) ، فالغفلة مذمومة على كل حال سواء في أمر ديننا أم في أمور دنيانا .

فيجب على كل واحد منا أن يقف مع نفسه للحظات ، ليسأل نفسه ماذا قدم للقاء ربه ؟ وما ذا قدم لوطنه؟ وما آخر الطريق الذي يريد الوصول إليه ؟ وماذا عن راحة ضميره في كل ما قدم ويقدم؟ لقد سأل رجل النبي (صلى الله عليه وسلم) متى الساعة ؟ فقال له (صلى الله عليه وسلم) : " مَا أَعْدَدْتَ لَهَا" فقال الرجل : حب الله ورسوله ، فقال له النبي (صلى الله عليه وسلم) :" أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ " (متفق عليه) ، وهل

سيقول الإنسان ـ وعن قناعة تامة ـ لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لسلكت ـ وعن راحة ضمير ـ الطريق نفسه ، أو أنه يتمنى أن لو كان قد سلك طريقًا آخر ، وإذا كان العقلاء يؤكدون أن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل ، فيمكن لكل عاقل أن يثوب إلى طريق الرشاد بلا تردد أو توجس ما دام يوقن أنه سبيل الرشاد ، فاليوم سبيل العمل ، وغدًا يوم الحساب حيث يقال : " وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾" (الصافات : ٢٤) .

فالخلق جميعًا بين فريقين لا ثالث لهما " فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ" (الأعراف :٣٠) ، فريق في الجنة ، وآخر في السعير ، " فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ " (هود : ١٠٦ – ١٠٨) .

ويذكرنا القرآن الكريم بحال كلا الفريقين ، فيقول الحق سبحانه :" إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي

أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ "
(فصلت:٣٠-٣٢) .

فالملائكة هنا لا تتنزل على الأنبياء والمرسلين فحسب ، إنما تتنزل على عباد الله الصالحين الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ، لكن متى تتنزل؟ وكيف تتنزل ؟

أما الكيفية فعلمها مفوض إلى رب السموات والأرض رب العرش العظيم ، وأما متى تتنزل ؟ فأكثر أهل العلم على أنها تتنزل على المؤمن ساعة الاحتضار لتطمئنه قائلة : لا تخف يا عبد الله ولا تحزن وأبشر بالجنة التي كنت توعد ،" نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ " (فصلت :٣١) .

أما يوم المحشر فكما تحدث القرآن الكريم في أواخر سورة الأنبياء حيث قال: " وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ " (الأنبياء :١٠٣)، وأما في الجنة فالملائكة يدخلون عليهم من كل باب " سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ " (الرعد :٢٤) ، " كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ" (الحاقة :٢٤) ، " وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ " (فصلت :٣١) ،

"كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ " (البقرة :٢٥) ، " وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا " (الإنسان : ١٩-٢٠) أعد الله (عزّ وجلّ) لهم فيها "مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر"، ونزع الله (عزّ وجلّ) من بينهم الغل والحسد " وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ " (الحجر :٤٧) .

أما على الجانب الآخر والعياذ بالله فهناك من شُغل عن الله (عزّ وجلّ) بماله ، أو بجاهه ، أو بسلطانه ، أو بتجارته ، وهناك " يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ " (عبس : ٣٤-٣٧) ، " يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ " (الشعراء : ٨٨ - ٨٩) ، " يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا ۚ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ " (لقمان : ٣٣) يومها يندم الخاسرون حيث لا ينفع الندم ،

يقول كل من يأخذ كتابه بشماله : " يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ۝٢٥ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ۝٢٦ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ۝٢٧ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ۝٢٩ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ۝٣٢ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ " (الحاقة : ٢٥-٣٣) ، وسيقال له عند انصراف آخر قَدَمٍ مُوَدِّعٍ : يا ابن آدم جاءوا ودفنوك ، وفي التراب وضعوك ، وعادوا وتركوك ، ولو ظلوا معك ما نفعوك ، ولم يبق لك إلا أنا وأنا الحي الذي لا يموت .

فنحن بين سبيلين بيَّنهما الحق سبحانه وتعالى في مواضع عديدة من كتابه تعالى ، منها قوله تعالى : " مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ۝١٨ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا "(الإسراء ١٨-١٩)، فالآخرة تحتاج إلى سعي هو سعيها الموصل إلى مرضاة الله فيها ، سعي المؤمن بها المعدُّ لها ، وهذا هو السعي المشكور ، أما الفريق الآخر فحتفه جهنم يلقاها مذمومًا مدحورًا ، ويقول سبحانه : "فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠ " (الليل: ٥-١٠)،

فالعاقل من يعمل لدنياه كأنما يعيش أبدًا ويعمل لآخرته كأنه يموت غدًا ، من منطلق قوله تعالى :" وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ" (القصص :٧٧).

* * *

نعمة الماء

الماء عصب الحياة وقوامها، يقول الحق سبحانه : " وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۚ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ " (الأنبياء :٣٠)، وهو نعمة ورزق ، حيث يقول سبحانه : " أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ " (الواقعة : ٦٨ - ٧٠) ، ويقول تعالى : " هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ " (غافر : ١٣) ، ويقول سبحانه :" قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ " (الملك:٣٠) ، ويقول (عز وجل) ممتنًا على السيدة مريم عليها السلام : " فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا "(مريم:٢٤-٢٦) ، ويقول سبحانه :" وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ" (الأعراف: ٩٦) ، ومن أهم بركات السماء : نزول الماء عذبًا ، وبقدر مقدور .

وقد جعل الحق سبحانه وتعالى إنزال الماء بقدر مقدور وميزان دقيق؛ لأنه إن قَلَّ عن الحاجة أدى إلى الهلاك بالعطش ، وإن زاد عن الحاجة أدى إلى الهلاك بالغرق ، والحكمة تكمن في رحمة الله (عز وجل) في إنزاله بقدر ، حيث يقول سبحانه :" وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ "(المؤمنون:١٨)، ويقول سبحانه : "وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ " (الحجر: ١٩-٢٢).

فالماء نعمة يجب الحفاظ عليها ورزق يستوجب الشكر ، وينبغي علينا أن ندرك أمرين: الأول أن النعمة تدوم بالشكر ، وأن الشكر لا يكون بالكلام وحده إنما يكون بالعمل والأخذ بالأسباب ، فمن حيث كون الماء نعمة تستوجب الشكر ، يقول الحق سبحانه :" أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ " (الواقعة: ٦٣-٧٠) ، ويربط سبحانه

وتعالى شكره بزيادة النعم ، فيقول (عز وجل) : " وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ " (إبراهيم: ٧) ويقول سبحانه : " وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا " (الجن:١٦).

الأمر الآخر : أن نترجم الشكر إلى عمل بالحفاظ على كل قطرة ماء ، وتعظيم الإفادة منها ، وترشيد استخدامها ، وعدم تلويث مياه النهر أو البحر أو الآبار ، أو الجور على المجاري المائية أو تعطيل هذه المجاري ، أو الجور في استخدام المياه على حقوق الآخرين ، أو مخالفة التعليمات الصادرة عن الوزارات المعنية في هذا الشأن .

ولا شك أن قضية المياه أحد أهم التحديات المعاصرة ، وأن التحولات المناخية قد تزيد الأمور تعقيدًا في كثير من مناطق العالم ، مما يتطلب وعيًا دوليًّا بقضايا المياه ؛ لذا نجد بعض الدول رغم الوفرة المائية الشديدة بها تطبق الترشيد بقوة ، وفي أعلى درجاته ، حتى يصير الترشيد ثقافة مجتمع ، وثقافة شعب ، وثقافة أمة .

وهذا هو منهج ديننا الحنيف الذي نبذ الإسراف في كل شيء ونهى عنه، يقول تعالى : " وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ " (الأعراف: ٣١) ، ويقول سبحانه : " وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ

وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا " (الإسراء:٢٦-٢٧)، ولا شك أن التبذير أعم من أن يكون في المال ، فإنه يشمل التبذير في جميع المجالات بما فيها الإسراف في استخدام الماء أو غيره ، فعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو (رضي الله عنهما) أَنَّ رَسُولَ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ) : " مَرَّ بِسَعْدٍ وَهُوَ يَتَوَضَّأُ، فَقَالَ: (مَا هَذَا السَّرَفُ ؟) فَقَالَ : أَفِي الْوُضُوءِ إِسْرَافٌ ؟ قَالَ : (نَعَمْ ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى نَهَرٍ جَارٍ) "(مسند أحمد).

نعم الإسراف إسراف ، ولو كان في الوضوء ، ولو كنت على نهر جار ، فالإسراف لا علاقة له بالقلة أو الكثرة ، وإلا لطلبنا من الفقير أن يرشد وتركنا الغني يفعل ما يشاء ، غير أن الأمر بالترشيد والنهي عن الإسراف جاء عامًّا للفقير والغني على حد سواء ، في الندرة والوفرة بلا تفصيل ولا استثناء .

وكما نهانا النبي (صلى الله عليه وسلم) عن الإسراف في الماء ولو كنا على نهر جار ، كذلك نهانا (صلى الله عليه وسلم) عن كل ما يلوث الماء أو يفسده ، حيث يقول (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) :" اتَّقُوا الْمَلَاعِنَ الثَّلَاثَةَ : الْبَرَازَ فِي الْمَوَارِدِ ، وَقَارِعَةِ الطَّرِيقِ ، وَالظِّلِّ" (سنن أبي داود) ، مما يؤكد ضرورة الحفاظ على هذه النعمة ، وحسن استخدامها ، وترشيد هذا الاستخدام وتعظيمه على الوجه الأمثل.

وقد عُرِفَ الشعب المصري منذ نشأته بأن عقيدته تقوم على احترام نعمة مياه نهر النيل ، وتقوم ثقافة أبنائه منذ القدم على الحرص على نهر النيل وعدم تلويثه ، واعتبار تلويثه جريمة من الجرائم الكبرى ، وقد كان المصري القديم يكتب من ضمن وصاياه في نهاية حياته ، أنه لم يفعل كذا وكذا من الجرائم ، وأنه لم يلوث ماء النهر ، وكأنه يتقرب إلى الله تعالى بهذه الفضيلة ، وابتعاده عن تلك الجريمة النكراء ، جريمة تلويث مياه النهر .

فهذه ثقافة المصريين منذ القدم ، وعقيدتهم منذ الأزل في احترام مياه النهر، والحفاظ عليها، وعدم تلويثها ، وهو ما أكدت عليه شريعتنا الغراء.

ونؤكد أن نقطة مياه تساوي حياة ، فكل نقطة ماء يمكن أن تكون سببًا في حياة إنسان أو حيوان أو طائر أو نبات ، وإهدار كل نقطة ماء قد يعني إهدار حياة ، كما أن كل نقطة ماء تساوي مالاً مقومًا ، وفقدها أو إهدارها يعني مالا مقومًا يذهب هدرًا ، كما أن الحفاظ عليها نقية بلا تلوث يعد حفاظًا على ثروة مالية ، وأن تلويثها يعني إهدارًا مائيًّا وماليًّا معًا ، لأن تنقيتها تترجم إلى مال ، وأثرها على الصحة لا يقوم بمال .

ولقد جعل (صلى الله عليه وسلم) حفر الآبار والحفاظ على مجاري الماء وتوسعتها وتيسير سبل استخدامها مما تعظم به الدرجات ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : " مَنْ حَفَرَ مَاءً لَمْ يَشْرَبْ مِنْهُ كَبِدٌ حَرَّى مِنْ جِنٍّ ولا إِنْسٍ ولا

طَائِرٍ إِلَّا آجَرَهُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ " (التاريخ الكبير للبخاري ، صحيح ابن خزيمة) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): " سَبْعَةٌ يَجْرِي لِلْعَبْدِ أَجْرُهُنَّ بَعْدَ مَوْتِهِ وَهُوَ فِي قَبْرِهِ : مَنْ عَلَّمَ عِلْمًا ، أَوْ كَرَى نَهْرًا ، أَوْ حَفَرَ بِئْرًا ، أَوْ غَرَسَ نَخْلا ، أَوْ بَنَى مَسْجِدًا ، أَوْ وَرَّثَ مُصْحَفًا ، أَوْ تَرَكَ وَلَدًا يَسْتَغْفِرُ لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ" (الجامع الصحيح) ، والمراد بكري النهر توسعته ، يقال كرى النهر إذا حفر فيه حفرة لتوسعته ، فإذا كانت توسعة النهر ، أو مجاري المياه مما يعظم به الأجر ، ويمتد به الثواب للإنسان بعد وفاته وهو في قبره ، فإن الاعتداء على مجاري الماء بصفة عامة ومجرى النهر أو فروعه بصفة خاصة جريمة شرعية ووطنية .

لذا يجب علينا جميعًا الاقتداء بسنة سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في ترشيد استخدام الماء ، والعمل على الاستفادة بكل قطرة منه ، وعدم تلويثه ، أو الاعتداء على مصابِّهِ ومصادره ومجاريه التي يعد الاعتداء عليها اعتداء على حق المجتمع كله ، وتضييعًا لمصلحة معتبرة ، وأن المخالفة في ذلك هي مخالفة قانونية وشرعية في آن واحد ، لأن القصد من الشرع والقانون معًا في ذلك هو تحقيق مصالح البلاد والعباد .

وجدير بالذكر أن المياه الجوفية هي جزء من هذا الحق ، والتي ينبغي أن يخضع استخدامها والاستفادة منها لما ينظمه القانون ، فما ينطبق على ضوابط استخدام ماء النهر ينطبق على استخدامات المياه الجوفية والحفاظ عليها.

□

عناية الإسلام بالأيتام

اليتيم مشتق من اليتم ، وهو الفقد ، ولفظ اليتيم في ذاته يوحي بالضعف ويستوجب الشفقة والرحمة ، فإذا اجتمع على الإنسان يتم ، وفقر ، أو حرمان، فتلك فاجعة كبرى ، أما إذا اجتمع عليه يتم وفقر وتجاهل مجتمع فتلك ثالثة الأثافي كما كانت العرب تقول في جاهليتها ، وكفالة اليتيم تأمين له وللمجتمع معا ، تأمين له من التشرد والانحراف ، وتأمين للمجتمع من عواقب هذا التشرد ، كما أنه تأمين لكل شخص يخشى أن تباغته المنية وله ذرية ضعفاء يخشى عليهم الضياع أو الفقر أو الفاقة ، فكما تدين للمجتمع يدين لك ، يقول الحق سبحانه : " وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا " (النساء :٩) ، ويوصي بإكرامهم والإحسان إليهم ، فيقول سبحانه : "وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا "(النساء: ٨) ، ويقول سبحانه : " وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا " (النساء : ٣٦) .

لقد عنى الإسلام بشأن اليتيم عناية خاصة قبل بلوغه الحلم وبعد بلوغه الحلم ، وأمر بإكرامه ورعايته ورعاية أمواله ، وحذر من إيذائه وقهره ، فقال الحق سبحانه : " فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ " (الضحى:٩)، وذم أهل الجاهلية على تقصيرهم في حق اليتيم ، فقال سبحانه وتعالى : "كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ " (الفجر:١٧) ، وجعل إكرام اليتيم وسيلة لمرضاة الله عز وجل في الدنيا والآخرة وسبيلا لرفقة النبي (صلى الله عليه وسلم) يوم القيامة ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) :" أَنَا وَكَافِلُ اليَتِيمِ فِي الجَنَّةِ هَكَذَا"، وأشار (صلى الله عليه وسلم) بأصبعيه السبابة والوسطى (صحيح البخاري) .

ومع كثرة وتنوع ما يمكن أن يقدم لليتيم من رعاية أو عناية أو حنو أو إطعام أو كسوة أو إيواء أو نحوه فإن القرآن الكريم قد آثر لفظ الإصلاح على أي لفظ آخر ، فقال سبحانه وتعالى في كتابه العزيز :"وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ " (البقرة :٢٢٠) ، فكلمة "إصلاح" أمر جامع لكل ما يحتاجه اليتيم وما من شأنه أن يصلح حاله ، ولو أنك فتشت في معاجم

اللغة ومفرداتها ، واستخدمت جميع نظريات ما يُعرف في النقد الحديث بالبدائل اللغوية والحقول الدلالية ونظريات الاستبدال الرأسي والأفقي لتبحث عن أي كلمة يمكن أن تقوم مقام كلمة "إصلاح" لما وجدت أي كلمة أخرى تدانيها أو تقاربها بلاغة أو فصاحة في موضعها هذا ، ذلك أن اليتيم قد يكون فقيرًا في حاجة إلى الإطعام أو الكسوة أو الإيواء ، فيكون الإصلاح بتوفير ذلك له ، وقد يكون اليتيم غنيًا يحتاج إلى من يقوم على شأنه والعناية بماله والحفاظ عليه والعمل على تنميته فيكون الإصلاح هو القيام بذلك على الوجه الأكمل ، وقد يكون اليتيم غنيًا وله من إخوته أو أعمامه أو أخواله من يقوم على شئونه الاقتصادية خير قيام ، غير أن هذا اليتيم قد يكون في حاجة إلى العطف والحنو الذي قد يعوضه شيئًا من حنان الأب أو الأم أو الأبوين معًا ، وهنا يكون إصلاحه في إكرامه والحنو عليه والرحمة به ، وفي هذا يقول النبي (صلى الله عليه وسلم) : " مَنْ أَحْسَنَ إِلَى يَتِيمَةٍ أَوْ يَتِيمٍ عِنْدَهُ كُنْتُ أَنَا وَهُوَ فِي الْجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ، وَقَرَنَ بَيْنَ أُصْبُعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى" (مسند أحمد) ، وقد يكون اليتيم في حاجة إلى التعليم والتهذيب والتأديب والتوجيه والتربية الحسنة والتعهد بمكارم الأخلاق وصالحها ، مع ترسيخ الانتماء للوطن والوفاء له ومعرفة حقوقه على الفرد والمجتمع ، فيكون إصلاح اليتيم هو القيام بذلك .

ولم تقف عناية الإسلام باليتيم عند مرحلة الطفولة أو اليتم ، إنما شملته هذه العنـاية حتى عند استوائه رجلًا ، وحصوله على كل حقوقـه كاملة غير منقوصة ، يقول الحق سبحانه وتعالى:" وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا " (النساء:٢)، ومعلوم أن دفع مال اليتيم إليه إنما يكون بعد بلوغ الحلم ، لكن القرآن الكريم عبر بلفظ "اليتامى" باعتبار الحال والصفة التي كانوا عليها ترقيقًا للقلوب وحثًا لها على الوفاء بحقهم ، وتأكيدًا على ضرورة مراعاة ما كانوا عليه ، وأن ذمة القائمين على أموالهم لا تبرأ من أكل مال اليتيم حتى يدفعوا إلى هؤلاء اليتامى كامل حقوقهم وأموالهم ، ولقد حذر الحق (سبحانه وتعالى) من أكل مال اليتيم ، وصور الحق من يرتكب هذه الجريمة بصورة من يأكل نارًا فتحرق أمعاءه ، فيقول الحق سبحانه : " إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا " (النساء :١٠) .

أما على الجانب الآخر ، جانب من شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ، ونوَّر الله قلبه بالإيمان وملأه بالرحمة والإحسان ، فصار مفتاحًا لكل خير ، اصطفاه الله مع من اصطفاهم واختارهم لقضاء حوائج الناس ، وإدخال السرور عليهم ، فدخل تحت قول الحبيب محمد (صلى الله عليه وسلم) :" أَنَا وَكَافِلُ اليَتِيمِ فِي الجَنَّةِ هَكَذَا "(صحيح البخاري) ، وأشـار

(صلى الله عليه وسلم) بأصبعيه السبابة والوسطى، كناية عن قرب كافل اليتيم من الحبيب (صلى الله عليه وسلم) يوم القيامة.

ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " أَنَا وَامْرَأَةٌ سَفْعَاءُ الْخَدَّيْنِ كَهَاتَيْنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " وَجَمَعَ بَيْنَ أُصْبُعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ آمَتْ مِنْ زَوْجِهَا ، حَبَسَتْ نَفْسَهَا عَلَى أَيْتَامِهَا حَتَّى بَانُوا أَوْ مَاتُوا"(سنن أبي داود)، ويقول (صلى الله عليه وسلم) :" أَنَا أَوَّلُ مَنْ يُفْتَحُ لَهُ بَابُ الْجَنَّةِ، إِلاَّ أَنَّهُ تَأْتِي امْرَأَةٌ تُبَادِرُنِي فَأَقُولُ لَهَا : مَا لَكِ ؟ وَمَا أَنْتِ ؟ فَتَقُولُ: أَنَا امْرَأَةٌ قَعَدْتُ عَلَى أَيْتَامٍ لِي" (مسند أبي يعلى).

بل لقد جعل الحق سبحانه إطعام اليتيم أحد أهم عوامل اجتياز الصراط بسهولة ويسر فقال سبحانه : " فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ " (البلد : ١١-١٦) .

فما أحوجنا إلى تنمية الحس الإنساني ، والتكافل الاجتماعي ، والرحمة بالفقراء والضعفاء والأيتام والمساكين ، وألا يخطر ببالنا أنهم عالة علينا ، إنما هم سر العون والرحمة والبركة ، يقول نبينا : (صلى الله عليه وسلم) "وَهَلْ تُرْزَقُونَ وَتُنْصَرُونَ إِلا بِضُعَفَائِكُمْ " (مسند أحمد) .

* * *

حظ النفس من الدنيا

نؤمن أن الكمال لله وحده ، وأن العصمة فقط لأنبيائه ورسله ، ثم إن لكل نفس حظها ونصيبها من الدنيا قلَّ ذلك أو كثر ، غير أن حظ النفوس قد يكون غبطة ، وقد يكون حسدًا ، وقد يكون غلا وحقدًا وانتقامًا ، وقد يكون مجرد أمل ، وقد يكون أملًا يحمله العمل .

فالغبطة هي أن تتمنى دوام الخير للغير وأن يصيبك منه ما أصابه ، من غير أن تتمنى زوال النعمة عنه ، أما الحسد ففيه استكثار النعمة على الغير واعتباره غير أهل لها ، وتمني زوالها عنه ، أما الغل والحقد والانتقام فهو العمل على زوال النعمة عن الغير ، وإذا كانت الغبطة جزءًا من حظ النفس الذي يمكن أن يكون مقبولًا ، فإن الأمرين الأخيرين يتنافيان غاية التنافي مع الدين والقيم وطبائع النفس السوية .

والغبطة إما أن تكون أملا فارغًا ، وتطلعًا نفسيًا ، لا يخدمه عمل ولا مقومات ، وهو ما حذر منه النبي (صلى الله عليه وسلم) : " انْظُرُوا إِلَى مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ ، فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ الله " (صحيح مسلم) ، وإما أن تكون الغبطة غبطة صحية تدفع إلى السعي والعمل والتنافس في الخيرات ، وهي غبطة مقبولة تتناسب وطبائع النفوس السوية .

وهناك عوامل تدفع إلى ضبط وعلاج حظ النفس من الدنيا ، وأخرى تدفع إلى التوتر والقلق وربما الهدم والهلاك .

والناس نوعان : الأول سبيله الوحيد هو البناء لا الهدم ، فهو معنيٌّ ببناء نفسه ، أو بناء دولته ، أو بناء ما يقع في نطاق مسئوليته ، لأنه يؤمن أن البناء هو السبيل إلى مرضاة الله ، من منطلق أن رسالة الإسلام بل صحيح الأديان رسالة بناء وعمارة للكون لا هدم فيها ولا تخريب ، فإن وجد فتنة وهدمًا ، قاوم وصمد احتسابًا لله وحده ، أو اعتزلها ونأى بنفسه عنها وأنكر بلسانه أو بقلبه ، وهذا أضعف الإيمان ، أما الصنف الآخر فيسلك منهج التشويه والهدم للآخرين ، وكما قال القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني في وساطته : وأهل النقص رجلان : رجل أتاه التقصير من قبله ، وقعد به عن الكمال اختياره ، فهو يساهم الفضلاء بطبعه ، ويحنو على الفضل بقدر سهمه ، وآخر رأى النقص ممتزجًا بخلقته ، ومؤثّلا في تركيب فطرته، فاستشعر اليأس من زواله ، وقصرت به الهمة عن انتقاله ، فلجأ إلى حسد الأفاضل ، واستغاث بانتقاص الأماثل ، يرى أن أبلغ الأمور في جبر نقيصته ، وستر ما كشفه العجز عن عورته ، اجتذابُهم إلى مشاركته ، ووسمُهم بمثل سِمَتِه ، وقد قيل :

وإذا أرادَ اللهُ نشْـرَ فضيلةٍ طُوِيَت أتاحَ لها لِسانَ حسود

أما العوامل التي تدفع إلى ضبط النفس وعلاج حظها من الدنيا ، فأولها الإيمان الصادق بالله وبقضائه وقدره ، وأن ما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، مؤمنًا بأن الأمور بيد الله وحده ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " ... وَاعْلَمْ أَنَّ الأمة لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ رُفِعَتْ الْأَقْلاَمُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ " (الترمذي) .

ثم يتبع ذلك الرضا بما قسم الله ، والثقة فيه ، ثم ثقة الإنسان في نفسه ، وإحساسه بقدرته على الإنجاز ، وسعة أفقه في الحياة ، ودخوله من أبوابها المتسعة ، وأن يترك ما لا يستطيع إلى ما يستطيع لعله يجد فيما يستطيع ما يحقق أمله ، مع إيمان مطلق بقسمة الله في خلقه ، وأنها قسمة عدل تستحق الرضا ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلا مَا قُدِّرَ لَهُ " (سنن الترمذي) .

* * *

الظلـم ظلمـات

الظُّلم ، والظُّلْمة ، والظَّلام ، والظَّلمة ، والظالمون ، كل هذه المفردات ترجع إلى أصل واحد هو مادة " ظَلَم" التي تعنى السواد ، والقتام ، وهما من المعاني المخيفة المفزعة ، إذ لا أمان لظالم ، لا في الدنيا ولا في الآخرة من غضب الله (عز وجل) ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى : " وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ " (إبراهيم : ٤٢-٤٥) ، ويقول سبحانه: " فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ " (الحج : ٤٥) ، ويقول سبحانه : " وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ " (يونس : ١٣) ، ويقول سبحانه :" وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ

بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗا وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ "(القصص: ٥٨) ، ويقول سبحانه: "وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ" (هود : ١٠٢) .

ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : "اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ" (صحيح مسلم) ، ولما بَعَثَ النبي (صلى الله عليه وسلم) سيدنا معاذ بن جبل إلى اليمن قال له : " يا معاذ إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنِّي رَسُولُ الله ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، فَإِنْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الله عَزَّ وَجَلَّ حِجَابٌ"(صحيح البخاري)، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : "ثَلاثَةٌ لا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ : الإِمَامُ الْعَادِلُ ، وَالصَّائِمُ حِينَ يُفْطِرُ ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ يَرْفَعُهَا الله فَوْقَ الْغَمَامِ وَتُفَتَّحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَيَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ : وَعِزَّتِي لأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ" (رواه الترمذي).

ونؤكد أن أخذ أموال الناس أو أكلها ظلمًا يأتي في أشد درجات الظلم ، سواء أكان ذلك أكلا للحقوق ، أم منعًا لها ، أم اعتداءً على أملاك الآخرين

الخاصة أو العامة ، فقد اختصم رجلان أحدهما من كندة والآخر من حضرموت إلى سيدنا رسول (صلى الله عليه وسلم) في شأن أَرْضٍ يتنازعان عليها، فقال الحضرمي : يا رسول الله ، إن هذا غلبني على أرض كانت لأبي، فقال الكندي : هي أرضي في يدي أزرعها ليس له فيها حق ، فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) للحضرمي: ألك بينة ؟ قال: لا ، قال: فلك يمينه ، فقال: يا رسول الله ، إنه فاجر ليس يبالي ما حلف ، ليس يتورع من شيء، فقال : ليس لك منه إلا ذلك ، فَلَمَّا قَامَ لِيَحْلِفَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) :" مَنِ اقْتَطَعَ أَرْضًا ظَالِمًا ، لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ" (صحيح مسلم).

ويشمل الظلم كل ألوان الاعتداء والجور على الحقوق سواء أكانت حقوقًا مالية أم معنوية ، فمطل الغني ظلم ، وتطفيف الكيل والميزان ظلم ، وبخس الناس حقوقهم ظلم ، وشهادة الزور ظلم ، وإنكار الشهادة أو كتمها ظلم ، وعدم الوفاء بحق العمل ظلم ، وعدم توفية العامل حقة ظلم ، وعضل المرأة ظلم .

* * *

سلوك وسلوك

لا شكَّ أن سلوك الشخص يعكس مدى ثقافته ، ومدى أخلاقه ، ومدى تربيته ، ومدى حضارته ، وكذلك سلوك الأمم والشعوب يعكس مدى قيمها وتحضرها ، بل إن سلوك الشخص يعكس مدى إيمانه بوطنه ، وإيمانه بربه ، لأنه لو راقب الله (عز وجل) حق المراقبة لانضبط سلوكه وتصرفه ، وقد قال أحد المفكرين الحكماء : من الصعب بل ربما كان من المستبعد أو المستحيل أن نجعل لكل إنسان جنديًّا أو شرطيًّا أو حارسًا يحرسه ، وحتى لو جعلنا لكل شخص حارسًا أو جنديًّا أو شرطيًّا يحرسه فإن الحارس أيضًا قد يحتاج إلى من يحرسه ، والمُراقب قد يحتاج إلى من يُراقبه ، ولكن من السهل أن نُربي في كل إنسان ضميرًا حيًّا ينبض بالحق ويدفع إليه ، راقبناه أم لم نراقبه ، لأنه يُراقَب ممن لا تأخذه سنة ولا نوم ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى :" ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ " (البقرة:٢٥٥) ، ويقول (عز وجل) : " وَعِندَهُۥ

مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ " (الأنعام : ٥٩) ، ويقول سبحانه على لسان لقمان عليه السلام في وصيته لابنه: " يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ " (لقمان : ١٦) ، ويقول سبحانه : " أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ " (المجادلة: ٧) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : "ثَلاثٌ كَفَّارَاتٌ وَثَلاثٌ دَرَجَاتٌ وَثَلاثٌ مُنْجِيَاتٌ وَثَلاثٌ مُهْلِكَاتٌ ، فَأَمَّا الْكَفَّارَاتُ: فَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ فِي السَّبَرَاتِ ، وَانْتِظَارُ الصَّلاةِ بَعْدَ الصَّلاةِ ، وَنَقْلُ الأَقْدَامِ إِلَى الْجُمُعَاتِ ، وَأَمَّا الدَّرَجَاتُ : فَإِطْعَامُ الطَّعَامِ ، وَإِفْشَاءُ السَّلامِ ، وَالصَّلاةُ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ ، وَأَمَّا الْمُنْجِيَاتُ: فَالْعَدْلُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا ، وَالْقَصْدُ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرِ ، وَخَشْيَةُ اللهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلانِيَةِ ، وَأَمَّا الْمُهْلِكَاتُ : فَشُحٌّ مُطَاعٌ ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ ،

وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ " (مسند البزّار ، المعجم الأوسط للطبراني) .

ومن أهم السلوكيات التي ينبغي أن نُركز عليها هو التمييز بين السلوك الإيجابي والسلوك السلبي تجاه الحق العام ، والشأن العام ، والمال العام ، ففي جانب السلوك الإيجابي الذي يؤكده الإسلام ويُرشدنا ويحثنا عليه خير الأنام سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) إماطة الأذى عن الطريق ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً ، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ" (متفق عليه) ، وعندما سأل رجل النبي (صلى الله عليه وسلم) عن عملٍ يُدخله الجنة ، قائلاً : يَا رَسُولَ الله دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ ؟ قَالَ (صلى الله عليه وسلم) : " أَمِطِ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ" (شرح السنة للبغوي) .

على أن إماطة الأذى عن الطريق لا تتوقف عند مجرد رفع حجر هنا أو هناك عنه ، وإن كان ذلك أمرًا مشروعًا ومطلوبًا وجيدًا ، ولا يُستهان أو يُستخف به ، إنما حق الطريق أبعد من ذلك ، وأول حقوقه عدم الاعتداء عليه ، أو الإجحاف به ، أو عدم الوفاء بحقه ، فقد قال نبينا (صلى الله عليه وسلم) لأصحابه يومًا : "إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ عَلَى الطُّرُقَاتِ فَقَالُوا : مَا لَنَا بُدٌّ إِنَّمَا هِيَ مَجَالِسُنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا قَالَ: فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلاَّ الْمَجَالِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ

حَقَّهَا ، قَالُوا : وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ قَالَ : غَضُّ الْبَصَرِ وَكَفُّ الأَذَى وَرَدُّ السَّلاَمِ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ ، وَنَهْىٌ عَنِ الْمُنْكَرِ" (صحيح البخاري) ، على عكس السلوك السلبي الذي قد يتمثل في الاعتداء على المساحة المخصصة للطريق سواء بالبناء ، أم بالإشغال ، أم بالإزعاج ، أم بالخروج على الآداب العامة، ويلحق بالطريق في ضرورة إعطائه حقه والمحافظة عليه كل ما في حكمه من مسارات السكة الحديد ، ومترو الأنفاق ، وخطوط المياه ، والغاز، والكهرباء ، وسائر المرافق العامة .

وكذلك السلوك تجاه المال العام الذي هو مال الله ، ومال الأمة ، ومال الوطن ، ومال المواطنين ، حيث يقول الحق سبحانه : "يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٢٩ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا " (النساء :٢٩،٣٠)، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : "إِنَّ رِجَالًا يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ اللهِ بِغَيْرِ حَقٍّ فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " (صحيح البخاري) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : "كُلُّ جَسَدٍ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ " (شعب الإيمان للبيهقي).

على أن حُرمة المال العام أشد من حرمة المال الخاص ، فإذا كان للمال

الخاص صاحب يدافع عنه ويطالب به في الدنيا والآخرة ، فإن المـال العـام الذي هو حق للمجتمع كله قد يترتب على ضياعه جوع يتيم ، أو وفاة مريض ، أو فوت مصلحة عامة للوطن ، يؤثر ضياعها على أفراد المجتمع كله ، مما يجعلهم جميعًـا خصومًـا لمن اعتدى عليه سواء في الدنيا أم " يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ " (الشعراء:٨٨،٨٩).

* * *

قيمـــة الوقـت

الوقت قيمة هامة غالية ثمينة نفيسة لا يدرك قدرها كثير من الناس ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ " (صحيح البخاري) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : "لَا تَزُولُ قَدمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعِ خِصَالٍ : عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ ؟ وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ؟ وَعَنْ عَلِمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ؟ (المعجم الكبير للطبراني) ، فما من يوم إلا وينادى : يا ابن آدم أنا يوم جديد وعلى عملك شهيد فاغتنمني فإن غابت شمسي لن تدركني إلى يوم القيامة .

ولأهمية الزمن أقسم به الحق سبحانه وتعالى في مواضع عديدة ، وأشار إليه في مواضع أخرى من كتابه العزيز ، حيث يقسم سبحانه وتعالى بالفجر الذي أفرد له الحق سبحانه وتعالى سورة سماها باسمه ، فقال :" وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ " (الفجر : ١-٣) ، ويقسم بالضحى ويفرد له أيضا سورة سماها باسمه فيقول :" وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ " (الضحى :١-٤) ، وأقسم سبحانه وتعالى بالعصر وأفرد له سورة باسمه في كتابه العزيز هي

سورة العصر ، فقال سبحانه :" وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ " (العصر :١-٣) ، ويقسم سبحانه وتعالى بالصبح فيقول: " وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ۝٣٤ إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ ۝٣٥ نَذِيرٗا لِّلۡبَشَرِ ۝٣٦ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ " (المدثر: ٣٤-٣٧)، ويقسم بالليل وبالنهار فيقول سبحانه :" وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ " (الليل : ١ - ٧) فتسمية أربع سور بأسماء أوقات : الفجر ، والضحى ، والعصر ، والليل ، لهو أكبر دليل على أهمية الزمن .

إضافة إلى إشارات متعددة تربط بعض الأحداث أو الأعمال بالزمن كقوله تعالى: " أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا " (الإسراء : ٧٨) ، وقوله تعالى في شأن أصحاب الكهف:" وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا " (الكهف : ٢٥) ، وقوله تعالى : " شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ " (البقرة : ١٨٥) ، وقوله

تعالى:" وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ " (البقرة : ٢٣٣) ، وقوله سبحانه : " وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ " (البقرة : ٢٣٤)، وقوله سبحانه : " وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ " (البقرة: ٢٤٠) ، وقوله سبحانه : " لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ " (البقرة : ٢٢٦) .

على أن الناس في تعاملهم مع الوقت فريقان : الأول يسرقه الوقت فإن لم يسرقه الوقت حاول هو قتل الوقت لأنه في فراغ قاتل مل ، لا هو في أمر دينه ولا في أمر دنياه ، حيث يقول ابن مسعود (رضي الله عنه) : إني لأكره أن أرى الرجل فارغًا ، لا في عمل الدنيا ، ولا في عمل الآخرة.

أما الفريق الآخر فليس لديه فاقد من الوقت ولا فائض ، لأنه منظم يحسن استغلال وقته والاستفادة بكل جزء فيه ، لا يدرك قيمة ثوانيه فحسب ، إنما يدرك قيمة ما يعرف بالفيمتو ثانية ، ويعمل على استغلال كل ذرة من الزمن ، مدركًا أن النشاط يولد النشاط ، والكسل يولد الكسل ، وأن القليل إلى القليل كثير ، وأن حياة الإنسان إنما هي عبارة عن مجموعة من الوحدات الزمنية التي تشكل في مجملها وتراكيبها حياته كلها ،

وقد قال الشاعر :

دَقَّاتُ قلبِ المرءِ قائلـةٌ له

إنَّ الحيـاةَ دقائـقٌ وثـوان

وقد كان ذلك قبل أن يقف الناس على تجزئة الثواني إلى وحدات زمنية أخرى .

على أن عمر الإنسان هو ما ينتجه أو يخلفه من تراث معرفي ، أو فكري ، أو إنتاج علمي ، نظري أو تطبيقي ، وكل ما يقدمه لخدمة البشرية ، بغض النظر عن مدى الزمن الذي يعيشه ، وقد قال الشاعر:

عُمرُ الفتى ذكرُهُ لا طولُ مُدّتِهِ

فالبركة في العمر لا تكون بطول العمر فحسب ، إنما هي مقدار ما ينتجه أو يقدمه المرء في هذا العمر لخدمة دينه أو دنياه أو دنيا الناس ، فخير الناس من طال عمره وحسن عمله ، وشر الناس من طال عمره وساء عمله ، وخير الناس أنفعهم للناس .

* * *

الفقـه والفهـم

يقال : فقَه الرجل بفتح القاف إذا فهم ، وفقِه بكسر القاف إذا سبق غيره في الفهم ، وفقُه بالضم إذا صار الفقه له لازمة وملكة وسجية .

ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " مَنْ يُرِدِ الله بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَيُعْطِي الله ، وَلَنْ يَزَالَ أَمْرُ هَذِهِ الأُمَّةِ مُسْتَقِيمًا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ ، أَوْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ الله" (صحيح البخاري) ، أي ويعطي الله (عز وجل) العلم والفقه والفهم ، وقد قالوا : من عمل بما علم ورثه الله (عز وجل) علم مالم يكن يعلم ، حيث يقول الحق سبحانه في شأن الخضر (عليه السلام) :" وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا" (الكهف :٦٥) ، ويقول سبحانه : "وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ " (الأنبياء : ٧٩- ٨٠) فعبر الحق سبحانه وتعالى بلفظ "ففهمناها " ولم يقل علمناها ، لأن العلم شيء والفهم شيء آخر .

ويقول سبحانه وتعالى: " كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى

عِلۡمٍ عَلِيمٌ " (يوسف: ٧٦)، وقال تعالى على لسان يوسف (عليه السلام): " لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ " (يوسف :٣٧)، وقال رجل للقاضي شريح : علمني القضاء ، فقال له شريح: القضاء فقه ، القضاء لا يُعَّلم .

ولا يظن من حفظ بعض المسائل من بعض الكتب أنه قد صار حجة ، أو فقيهًا ، أو مرجعًا يرجع إليه وينزل على قوله أو رأيه ، فالأمر أبعد وأعمق، إذ لو كان الأمر واقفًا عند حدود معرفة بعض الأحكام الجزئية بمعزل عن أصولها وسياقها وزمانها ومكانها وقواعدها الكلية والأصولية لكان الخطب هينًا والأمر جد يسير ، غير أن الأمر أبعد من ذلك وأدق ، فعندما دخل الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) المسجد ووجد رجلاً يتصدر مجلس العلم سأله عن الناسخ والمنسوخ فلم يدر جوابًا ، فقال عليّ (رضي الله عنه) : هذا ليس بعالم ، هذا رجل يقول: أنا فلان بن فلان فاعرفوني .

فإلى جانب معرفة القواعد الأصولية ، وقواعد الفقه الكلية ، وعلم الحديث رواية ودراية ، وعلوم القرآن وما يتفرع عنها ويدور حولها

من دراسات قرآنية وأسرار بيانية وبلاغية ، هناك فقه الواقع ، وفقه الأولويات ، وفقه المقاصد ، وفقه النوازل ، وفقه المتاح ، وفقه الموازنات، مما لا غنى عنه للمفتي فضلا عن المجتهد ، غير أننا ابتلينا في زماننا هذا برويبضات لا هم في العير ولا في النفير ، يريدون أن يتصدروا مجالس العلم عنوة ، وأن يعتلوا المنابر اقتتالاً ، وأن يكونوا في الصدارة زورًا وبهتانًا ، يبحث بعضهم عن كل شاذ أو غريب ، لا يعنيه أول ما يعنيه إلا أن يجاري السفهاء ، أو يجادل العلماء ، أو يماري الأمراء ، أو يصرف إليه قلوب العامة والدهماء ، أو يُسوِّق نفسه لدى الباحثين عن طالبي الشهرة وحب الظهور ، لإحداث لون من الإثارة أو الجدل ، لعله يحظى لديهم بمغنم أي مغنم ، ولو كان على حساب دينه ، أو وطنه ، أو كرامته ، أو مروءته لا يلوي على شيء ، على عكس ما نراه في أخلاقيات العلماء الفاهمين لدينهم المعتزين بعلمهم وفقههم ، على نحو ما يصوره العالم الأديب الأريب القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني حيث يقول :

إذا قِيـــلَ: هذا مَشْربٌ ، قُلْتُ : قَـدْ أَرَى
ولَكِنَّ نَفْسَ الحُرِّ تَحْتَمِلُ الظَّـــــــــما
ولَمْ أَقْضِ حَقَّ العِلْمِ إِنْ كَانَ كُلَّـــــــما
بَدَا طَمَـــــعٌ صَيَّرْتُهُ لِيَ سُـلَّـــــــــما

أَأَشْقَى بِهِ غَرْســـــا وأَجْنِيهِ ذِلَّـــــة

إِذَنْ فَاتِّبَاعُ الجَهْلِ قَدْ كَانَ أَحزمَـــــا

ولَوْ أنَّ أَهْلَ العِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُـــــم

ولَوْ عَظَّمُوهُ فِي النُّفُوسِ لعُظِّمَـــــا

مع التأكيد على أن ليس للإنسان إلا ما كُتِب له ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ ، فَرَّقَ الله عَلَيْهِ أَمْرَهُ ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ مَا كُتِبَ لَهُ ، وَمَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ نِيَّتَهُ ، جَمَعَ الله لَهُ أَمْرَهُ ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ " (سنن ابن ماجة)، ويقول الحق سبحانه : " فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا " (الكهف : ١١٠) .

* * *

القيـم الإنسـانية

لاشك أن ديننا الحنيف مفعم بالقيم الإنسانية ، سواء في أخلاقه أم في تشريعاته ، فعندما كرم الإسلام الإنسان كرمه على أخلاقه الإنسانية بغض النظر عن لونه أو جنسه أو لغته أو عرقه ، فقال سبحانه : " وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ " (الإسراء : ٧٠) ولم يقل : كرمنا المسلمين وحدهم ، أو المؤمنين وحدهم ، أو الموحدين وحدهم ، وكان نبينا (صلى الله عليه وسلم) يقول : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ الله أَتْقَاكُمْ" (الجامع الصحيح للسنن) ، وكان يقول في شأن سلمان الفارسي : " سلمان منا آل البيت " (الحاكم في المستدرك) ، وكان عمر (رضي الله عنه) يقول : " أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا " (صحيح البخاري) ، يعني بذلك بلالًا الحبشي ، وقال رسولنا (صلى الله عليه وسلم) : " لَيَدَعَنَّ رِجَالٌ فَخْرَهُمْ بِأَقْوَامٍ إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ ، أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى الله (عز وجل) مِنَ الْجِعْلَانِ الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتِنَ " (مسند أحمد).

وعندمـا حرم الإسـلام قتل النفس حـرم قتـل كل نفس ، وأي نفس ، وعصم كل الدماء ، فقال الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز :

"أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ" (المائدة : ٣٢)، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " لن يَزَالُ المُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِن دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا " (صحيح البخاري) وعندما رأى النبي (صلى الله عليه وسلم) امرأة كافرة عجوزًا مقتولة في ساحة القتال قال (صلى الله عليه وسلم) : "من قتلها ؟، ما كانت هذه لتقاتل" (مسند أحمد) ، بما يعني أنه لا يوجد في الإسلام قتل على المعتقد إنما يكون القتال لردِّ العدوان ، ولما مرت عليه (صلى الله عليه وسلم) جنازة يهودي وقف (صلى الله عليه وسلم) حتى مرت ، فقيل له : إنها جنازة يهودي يا رسول الله ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : أليست نفسًا؟ ! (متفق عليه).

وعندما تحدث القرآن الكريم عن خيرية هذه الأمة ربط هذه الخيرية بإنسانية هذه الأمة وكونها خير الناس للناس ، فقال سبحانه : " كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ" (آل عمران : ١١٠) .

وقد عني التشريع الإسلامي بشأن الأيتام ، والضعفاء والفقراء والمحتاجين ، وذوي الاحتياجات الخاصة ، وجعل (صلى الله عليه وسلم) الساعي على الأرملة والمسكين كالصائم القائم ، وكالمجاهد في سبيل الله أجرًا وثوابًا وحسن عاقبة ، وكان (صلى الله عليه وسلم) يقول : " هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلا بِضُعَفَائِكُمْ " (صحيح البخاري)، وعندما وصفته السيدة خديجة (رضي الله عنها) قالت : " فوالله لا يخزيك الله أبدا ؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ " (متفق عليه) .

وقد راعى الإسلام حق الضعيف والجار والمسكين والمحتاج ، فقال نبينا (صلى الله عليه وسلم) :" وَاللهِ لا يُؤْمِنُ ، وَاللهِ لا يُؤْمِنُ ، وَاللهِ لا يُؤْمِنُ " قَالُوا : وَمَا ذَكَ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ : " الجَارٌ لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَه" (مسند أحمد) ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : " مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلا يُؤْذِ جَارَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ " (صحيح البخاري) ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : " مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَان وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ بِهِ " (المعجم الكبير للطبراني)، ولما قيل له: إن فلانة صوامة قوامة إلا أنها تؤذي جيرانها ، قال (صلى الله عليه وسلم) : "هي في النار "

(مسند أحمد) ، وعندما تحدث (صلى الله عليه وسلم) عن حقوق الجار سما بها إلى أعلى درجات الرقي الإنساني حين قال: وإن اشتريت فاكهة فأهد له منها ، وإلا لم تفعل فأدخلها سرًّا ، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده ، ولا تؤذه بقتار قدرك إلا أن تغرف له منها ، ثم قال : أتدرون ما حق الجار ؟ والذي نفسي بيده لا يبلغ حق الجار إلا من رحمه الله" (جامع الأحاديث للسيوطي ، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال).

وراعى الإسلام حق وشعور الغريب والبعيد ، فقال الحق سبحانه في شأن معاملة الوالدين : " وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا " (الإسراء :٢٣)، وجعل الإسلام اللقمة التي تضعها في فم امرأتك ، والنفقة التي تنفقها على ولدك صدقة ، ونهى حتى عن مجرد جرح المشاعر ، فقال نبينا (صلى الله عليه وسلم) : "من كانت له أنثى فلم يئدها ولم يهنها ، ولم يؤثر ولده عليها - يعني الذكور - أدخله الله الجنة "(سنن أبي داود) ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : " إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً، فَلَا يَتَنَاجَى اِثْنَانِ دُونَ اَلْآخَرِ ، حَتَّى تَخْتَلِطُوا بِالنَّاسِ؛ مِنْ أَجْلِ أَنَّ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ " (متفق عليه)، ودعا إلى كل ما يحقق الوفاق والوئام الإنساني ، فنهى عن التحاسد والتباغض والتنابز بالألقاب ، ودعا إلى

التراحم والتزاور والتسامح ، وحسن الظن ومناداة الإنسان بأحب الأسماء إليه والبشاشة في وجهه ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : " لا يحقرن أحدكم شيئًا من المعروف وإن لم يجد فليلق أخاه بوجه طلق ، وإن اشتريت لحمًا أو طبخت قدرًا فأكثر مرقته واغرف لجارك منه" (سنن الترمذي) .

فما أحوجنا إلى استعادة وترسيخ هذه القيم الإنسانية التي دعا إليها ديننا الحنيف ؛ لنحقق بصدق خيرية هذه الأمة كما أرادها الله (عز وجل) ، وتستحق بها رحمة الله أولًا ، وأن نكون شهداء على الأمم ثانيًا ، وأن نغير الصورة القاتمة التي رسمتها الجماعة الإرهابية المضللة لديننا الحنيف من جهة ثالثة .

* * *

حبس الحقـــوق

لاشك أن الإسلام أعطى كل إنسان حقه ، وكل وارث حقه ، وكل ذي حق حقه ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) في خطبته الجامعة في حجة الوداع : " إِنَّ الله عز وجل قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ، أَلَا لَا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ" (سنن ابن ماجه) .

وقد أعطى العالم حقه ، والكبير حقه ، والصغير حقه ، والمرأة حقها، والأجير حقه ، واليتيم حقه ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : " لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا " (الأدب المفرد للبخاري) ، وفي رواية "لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيرَنَا ، وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا ، وَيَعْرِفْ لِعَالِمِنَا حَقَّهُ" (الجامع الصحيح للسنن والمسانيد) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): "قَالَ الله : ثَلاَثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ " (صحيح البخاري) ، وقد قالوا : أعط الأجير حقه قبل أن يجف عرقه .

وقد نهى الإسلام عن أكل أموال اليتامى ظلما فقال سبحانه : " وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا " (النساء :٢) ، ويقول الحق سبحانه : " إِنَّ

ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا " (النساء :١٠) ، ويقول سبحانه : " يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٢٩ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا " (النساء : ٢٩-٣٠).

وحدّ لذلك حدودًا وبخاصة في المواريث ، وجعل الاعتداء على حق الإنسان في الميراث اعتداء على حدود الله ، يقول الله (عز وجل) في ختام الحديث عن آيات المواريث في سورة النساء : " تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٣ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارٗا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ " (النساء : ١٣ ، ١٤) .

غير أننا ابتلينا ببعض من لا يتقون الله في حقوق الناس ، فيحبسونها عن أصحابها وبخاصة الضعفاء ، بحجة الحفاظ عليها أو تنميتها ، وأضرب لذلك مثالين :

الأول : من يحبس حق المرأة في الميراث بحجة الحفاظ عليه ، أو يحبس

حق اليتيم بحجة الحفاظ عليه أيضا ، فهم كما قال الشاعر :

كَالعِيسِ فِي الْبَيْدَاءِ يَقْتُلُهَا الظَّمَـا

وَالْمَـاءُ فَوقَ ظُهُورِهَا مَحْـمُـــول

وفي ذلك نسمع ونقرأ قصصًا عجيبة وغريبة ، عن تعامل بعض أولياء اليتيم أو اليتيمة ، أو بعض الإخوة ، أو الأهل الذين يقبضون على كامل التركة بحجة عدم تفرقتها ، ولا يعطون بعض النساء حقوقهن مع حاجتهن الملحة إلى ما شرعه الله (عز وجل) لهن من نصيب جعله مفروضًا ، فقال سبحانه: " لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا " (النساء : ٧).

وأعجب من هذا حال بعض الجمعيات التي تقوم على رعاية الأيتام ، فتجمع المال لأجلهم ، وبدل أن تفي بحاجاتهم الآنية العاجلة من مطعم أو ملبس أو كسوة – ونحو ذلك مما لا غنى عنه لهم – أو الإنفاق على تعليمهم أو مداواتهم ونحو ذلك ، تذهب إلى استثمار هذه الأموال ، ثم تستثمر عائد الاستثمار ولا تصرف منه إلا فتاتًا ، فرحة بتعلية الأرصدة مؤكدة أنها لصالح اليتيم يوما ما ، على أن هذا اليتيم قد يصيبه ما يصيبه من الألم والحسرة والحرمان قبل أن يأتي هذا اليوم الذي ينعم فيه بالمال الذي جمع لأجله .

وإذا كان القرآن الكريم قد نعى على أهل الجاهلية عدم إكرام اليتيم ، وعدم حضِّهم على طعام المسكين ، فقال سبحانه : " أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ " (الماعون : ١-٣) ، وقال سبحانه : " كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ ۖ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ " (الفجر : ١٧-٢٦) فما ظنكم بمن يحبس حق المرأة أو حق اليتيم أو حق الأجير ، فيحبس الحقوق عن أصحابها المستحقين لها ، وهو ليس عليهم بوكيل ، إنما هو مؤتمن ، وعلى المؤتمن أن يسرع في أداء الأمانة التي ائتمنه الله (عز وجل) عليها ، يقول الحق سبحانه في شأن اليتامى :" وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا " (النساء : ٦).

□

الدنيـــا والآخـــرة

الدنيا فانية لا محالة ، غير أننا نعيش فيها ونحن مأمورون بإعمارها وإعمار الكون ، والسير في مناكب الأرض بحثًا عن الرزق ، وبناءً للحضارة ، وطلبًا للعظة والاعتبار بحال من مضى في القرون الأولى.

والآخرة باقية ، ونحن مأمورون بالسعي لها ، والإقبال عليها ، والعمل لأجلها ، عملا لا يخالطه دَخَنٌ ولا نفاق ، وذلك حيث يقول سبحانه : "وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا " (الإسراء : ١٩).

على أن سعي الدنيا المذموم هو ذلك السعي الذي يكون على حساب الآخرة ، وفيمن يضحي بآخرته لأجل دنياه ، ولا يعنيه سوى الدنيا ولو باع نفسه أو دينه أو وطنه في سبيلها ، وذلك النوع هو الذي ينطبق عليه قوله تعالى : " مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا " (الإسراء : ١٨) ، وقوله تعالى : "مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ " (هود : ١٥، ١٦) ،

وقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ الله غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ الله فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلا مَا قُدِّرَ لَهُ"(سنن الترمذي).

أما سعي العمل والإنتاج وتحقيق الاستغناء عن ذل السؤال أو الحاجة إلى الناس ، فهو ذلكم السعي الذي يدعو إليه الإسلام ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه سلم) : " مَنْ أَمْسَى كالًّا مِنْ عَمَلِ يَدَيْهِ أَمْسَى مَغْفُورًا لَهُ " (رواه الطبراني في الأوسط)، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : "مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ ، وَإِنَّ نَبِيَّ الله دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ" (صحيح البخاري) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ " (مسند أحمد) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " لَأَنْ يَحْتَطِبَ أَحَدُكُمْ حُزْمَةً عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدًا فَيُعْطِيَهُ أَوْ يَمْنَعَهُ" (صحيح البخاري) .

إن الذي نفتقده ، والذي نسعى إليه هو ذلكم التوازن ، وتلكم الوسطية القائمة على الاعتدال كما في قوله تعالى: " وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ "(القصص:٧٧) ، وقوله تعالى : " وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا "

(الإسراء : ٢٩) ، وقوله تعالى : " وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا "(الفرقان : ٦٧) ، وقوله (صلى الله عليه وسلم) : "نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ"(شعب الإيمان للبيهقي) ، وقوله (صلى الله عليه وسلم) : " إِنَّمَا الدُّنْيَا لأَرْبَعَةِ نَفَرٍ عَبْدٍ رَزَقَهُ الله مَالاً وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِى فِيهِ رَبَّهُ وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ وَيَعْلَمُ لله فِيهِ حَقًّا فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ الله عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالاً فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلاَنٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ الله مَالاً وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لاَ يَتَّقِى فِيهِ رَبَّهُ وَلاَ يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ وَلاَ يَعْلَمُ لله فِيهِ حَقًّا فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ ، وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ الله مَالاً وَلاَ عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلاَنٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ " (سنن الترمذي).

فلا حرج في طلب الحسنى في الدنيا والآخرة ، بل هل مطلوب مشروع وممدوح ، وذلك حيث يقول الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز : "وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٢٠١ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ " (البقرة : ٢٠١ -٢٠٢).

* * *

حق المرأة في الميراث والحياة الكريمة

تعد قضية الميراث واحدة من أهم القضايا التي أكد عليها سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في خطبته الجامعة في حجة الوداع حيث قال : "إِنَّ الله عز وجل قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ، أَلَا لَا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ" (سنن ابن ماجه) ، وقد حدد الحق سبحانه وتعالى بنفسه أنصبة الوارثين ولم يتركها لأحد من خلقه ، حيث يقول سبحانه وتعالى : " يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا "(النساء:١١) .

ولم يقف الأمر عند حد تحديد الأنصبة ، وإنما رتب القرآن الكريم الوعيد الشديد لكل من تسول له نفسه الاعتداء على هذه الحقوق ، فقال سبحانه في ختام الحديث عن تحديد الأنصبة: " تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٣ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا

وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ " (النساء: ١٣ـ١٤)، ونعى على أهل الجاهلية أكلهم حقوق بعض الورثة بغير حق ، فقال سبحانه: "كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ " (الفجر:١٧ـ ٢٦)، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) :" مَنْ قَطَعَ مِيرَاثًا فَرَضَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ قَطَعَ اللهُ بِهِ مِيرَاثًا مِنَ الْجَنَّةِ" (شعب الإيمان للبيهقي).

ويحكى : أن رجلا حرم ابنته من الميراث فانتظرت حتى دنت ساعة وفاته ولقاء ربه ، فدخلت عليه لحظة غسله ، فنظرت إليه وقالت: اللهم إنك تعلم أنه قد حرمني بعض نعيم الدنيا وإني أسألك أن تحرمه من نعيم الآخرة.

ثم إن حرمان النساء من الميراث يكون لعلل واهية أو عادات وتقاليد بالية لا أصل لها في الشرع ، وكأني بالذي يحرم شخصًا ويؤثر آخر يظن نفسه أعلم بالمصالح وبمن يستحق ممن لا يستحق من رب العالمين وأحكم الحاكمين ، خالق الخلق ومالك الملك ، وكأن لسان حال هذا المفتئت على الله (عز وجل) في تشريعه يقول : تقسيم الله لا يعجبني ، أو كأنه يقول: أنا

أقسّم تقسيما أحسن من تقسيم الله - والعياذ بالله – إذ لو كان مؤمنا بأن تقسيم الله في كتابه العزيز هو الأفضل والأمثل ، لما تدخل بإيثار هذا وحرمان ذاك .

وفي شأن المرأة بصفة عامة أمًّا كانت أو أختًا أو زوجًة أو ابنًة أو غير ذلك ، فقد نهى ديننا عن عضلهن وظلمهن وبخسهن حقوقهن ، بل جعل العدل معهن وعدم التفرقة بين البنت والابن سبيلاً واسعًا لمرضاة الله وطريقًا لرضوانه وجنته ، فقال نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " مَنْ كَانَتْ لَهُ أُنْثَى فَلَمْ يَئِدْهَا وَلَمْ يُهِنْهَا وَلَمْ يُؤْثِرْ وَلَدَهُ عَلَيْهَا أَدْخَلَهُ الله الْجَنَّةَ " (رواه أبو داود) ، ففي هذا الحديث معان راقية وبلاغة عالية ، حيث عبر النبي (صلى الله عليه وسلم) في صدر الحديث بالاسم الموصول "مَنْ" الذى يفيد العموم والشمول ، وعبر بلفظ الأنثى دون البنت ، لأنه أعم ، فلفظ الأنثى يشمل كل أنثى سواء أكانت بنتًا ، أم أختًا ، أم بنت ابن ، أم بنت بنت ، أم غير ذلك .

وقد أوصى نبينا (صلى الله عليه وسلم) بالمرأة وإكرامها وحسن معاملتها في مواضع متعددة ، يقول (صلى الله عليه وسلم) : " مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ، فَصَبَرَ عَلَيْهِنَّ وَأَطْعَمَهُنَّ وَسَقَاهُنَّ وَكَسَاهُنَّ مِنْ جِدَتِهِ ، كُنَّ لَهُ حِجَابًا يوم القيامة مِنْ النَّارِ " (مسند أحمد) ، وفى رواية : " من كانت له بنتان أو أختان " (مسند أحمد)، وفى رواية أخرى ما يؤكد أنها حتى لو بنتًا واحدة فعلمها وليها وأدّبها وأحسن إليها فإنها تكون سترًا له من النار يوم القيامة"

(شعب الإيمان) ، ولما كان أحد الناس جَالِسًا مَعَ النَّبِيِّ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَجَاءَ بُنَيٌّ لَهُ ، فَأَخَذَهُ فَقَبَّلَهُ وَأَجْلَسَهُ فِي حِجْرِهِ ، ثُمَّ جَاءَتْ بُنَيَّةٌ لَهُ ، فَأَخَذَهَا وَأَجْلَسَهَا إِلَى جَنْبِهِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : "فَمَا عَدَلَتْ بَيْنَهُمَا " (الأدب المفرد) ، أي أنه كما وضع الولد على فخذه كان ينبغي أن يفعل مع البنت فيجعلها على فخذه الآخر.

غير أننا نرى ونلمس في واقعنا المعاصر بعض ألوان التفرقة المقيتة ، ففي داخل السكن الأُسَري لدى بعض الناس يكون موقع الولد أفضل من موقع أخته ، وفى مجال التعليم تكون العناية بالولد أكثر من العناية بالبنت ، وعند الميراث الذي صدرنا به المقال إما أنها لا تُعطى أصلًا فيُهضم حقها بالكامل، وإما أن تُعطى فتاتًا على سبيل ما يسمى زورًا وبهتانًا بالترضية ، وهو أمر لا يمت للترضية الحقيقية بشيء ، إنما هو لون من ألوان الإسكات أو القهر أو الغبن ، سمّه ما شئت غير أن يكون ترضية أو إحقاقًا للحق ، أو تطبيقًا عادلًا لشرع الله (عز وجل) ، وتوزيعًا وفق ما يقتضي الشرع والحق والعدل والقانون .

* * *

حقيـقة الخشيـة

الخشية خوف يشوبه تعظيم ، وقيل : هي الخوف المقرون بإجلال ، وهي أخص من الخوف ، وهي من سمات الأنبياء والعلماء والصالحين ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " أَمَا وَالله إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لله وَأَتْقَاكُمْ لَهُ " (صَحِيحُ البُخَارِي) ، ويقول : (صلى الله عليه وسلم) : "فَوَالله إِنِّي لأَعْلَمُهُمْ بِالله وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً "(صَحِيحُ البُخَارِي) ، ويقول الحق سبحانه : " ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا "(الأحزاب : ٣٩).

وهي خوف العلماء المقرون بمعرفة الله وإجلاله وإدراك عظيم شأنه سبحانه وتعالى ، حيث يقول الحق سبحانه :" إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ " (فاطر : ٢٨).

وقال بعضهم : الخشية إنما تكون من عظم من يُخشى منه ، فهي رديف المهابة ، وهي من صفات أولي الألباب ، حيث يقول الحق سبحانه : " إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ " (الرعد:١٩-٢١).

وهي أيضًا من صفات المتقين وسمات المؤمنين المخلصين ، حيث يقول

الحق سبحانه :" وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ " (الأنبياء : ٤٨ – ٤٩) ، ويقول سبحانه : " إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ "(التوبة: ١٨)، ويقول تعالى: " ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ " (الزمر: ٢٣) .

ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : "عَيْنَانِ لاَ تَمَسُّهُمَا النَّارُ : عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ الله " (رواه الترمذي) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " لاَ يَلِجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللهَّ حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ ، وَلا يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللهَّ ودُخانُ جَهَنَّمَ " (رواه الترمذي).

والخشية تعني حسن المراقبة لله (عز وجل) في السر والعلن ، على نحو ما كان من ابنة بائعة اللبن – فعن عبد الله بن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن جدِّه أسلم قال : بينما أنا مع عمرَ بن الخطاب (رضي الله عنه) وهو يتفقد الرعية بالمدينة إذ أَعيا ، فاتَّكأ على جانبِ جدارٍ في جوفِ الليلِ ، فإذا امرأةٌ

تقولُ لابنتها : يا ابنتاه ، قُومي إلى ذلك اللَّبنِ فامْذُقيهِ بالماء. فقالت لها : يا أَمَّتاه ، أو ما عَلمتِ بما كان من عزمة أمير المؤمنين اليوم؟! قالت : وما كانت من عزمته يا بُنيَّة؟ قالت: إنَّه أمر مناديه فنادى: ألا يُشَابَ اللَّبنُ بالماء. فقالت لها : يا بنتاه ، قومي إلى اللَّبن فامْذُقيهِ بالماء ، فإنك بموضعٍ لا يَراكِ عمرُ ، ولا مُنادِي عمرَ . فقالت الصبيَّةُ لأمِّها : يا أَمَّتاه ، واللهِ ما كنتُ لأُطيعَهُ في الملأ ، وأَعصِيَهُ في الخلا ، وعمرُ يَسْمع كلَّ ذلك ، فقال: يا أسلمُ، علِّمِ البابَ ، واعرفِ الموضعَ. ثم مضى ، فلمَّا أصبح ، أتاهم فزَوَّجها من ابنه عاصم ، فوَلَدت لعاصم بنتًا ، وَوَلَدت البنتُ عمرَ بن عبد العزيز رحمه الله تعالى .

وخرج ابن عمر (رضي الله عنهما) ذات يوم فِي بَعْضِ نَوَاحِي الْمَدِينَةِ وَمَعَهُ أَصْحَابُ لَهُ ، وَوَضَعُوا سَفْرَةً لَهُ ، فَمَرَّ بِهِمْ رَاعِي غَنَمٍ ، قَالَ : فَسَلَّمَ ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ : هَلُمَّ يَا رَاعِي ، هَلُمَّ ، فَأَصِبْ مِنْ هَذِهِ السُّفْرَةِ ، فَقَالَ لَهُ : إِنِّي صَائِمٌ ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ : أَتَصُومُ فِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ شَدِيد الْحَرِّ وَأَنْتَ فِي هَذِهِ الْجِبَالِ تَرْعَى هَذَا الْغَنَمَ ؟ فَقَالَ لَهُ : أَيْ وَالله ، أُبَادِرُ أَيَّامِي الْخَالِيَةَ ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عُمَرَ وَهُوَ يُرِيدُ يَخْتَبِرُ وَرَعَهُ : فَهَلْ لَكَ أَنْ تَبِيعَنَا شَاةً مِنْ غَنَمِكَ هَذِهِ فَنُعْطِيكَ ثَمَنَهَا وَنُعْطِيكَ مِنْ لَحْمِهَا فَتُفْطِرَ عَلَيْهِ ؟ فَقَالَ : إِنَّهَا لَيْسَتْ لِي بِغَنَمٍ، إِنَّهَا غَنَمُ سَيِّدِي ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عُمَرَ : فَمَا عَسَى سَيِّدُكَ فَاعِلا إِذَا فَقَدَهَا ،

فَقُلْتَ : أَكْلَهَا الذِّئْبُ ، فَوَلَّى الرَّاعِي عَنْهُ وَهُوَ رَافِعٌ أُصْبُعَهُ إِلَى السَّمَاءِ ، وَهُوَ يَقُولُ : أَيْنَ الله ؟ قَالَ : فَجَعَلَ ابْنُ عُمَرَ يُرَدِّدُ قَوْلَ الرَّاعِي ، وَهُوَ يَقُولُ : فَأَيْنَ الله ؟ ، فَلَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ بَعَثَ إِلَى مَوْلاهُ فَاشْتَرَى مِنْهُ الْغَنَمَ وَالرَّاعِي فَأَعْتَقَ الرَّاعِيَ ، وَوَهَبَ لهُ الْغَنَمَ .

* * *

البغي وسوء العاقبة

البغي وسوء العاقبة أمران متلازمان لا ينفكان ، يقول الحق سبحانه : "يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ " (يونس:٢٣) ، ويقول سبحانه: " فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ١٥ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ " (فصلت:١٥-١٦) ، ويقول سبحانه :" فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ " (الأعراف : ١٦٦) ، وقد قرر أهل العلم أن الله (عز وجل) ينصر الأمة العادلة ولو كانت كافرة ، ولا ينصر الأمة الظالمة الباغية ولو كانت مؤمنة.

والبغي قد يكون بغي أفراد ، وقد يكون بغي جماعات ، وهو من يطلق عليهم " البغاة " ، وقد يكون بغي دول ، وما من شخص أو طائفة أو جماعة بغت وطغت واستعلت وتجبرت إلا أخذها رب العزة (سبحانه وتعالى) أخذ عزيز مقتدر ، يقول الحق سبحانه : " وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ

أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ " (هود :١٠٢) ، ويقول (عز وجل) في شأن قارون :" إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ " (القصص: ٧٦ -٨١) .

وفي قصة صالح عليه السلام مع قومه ، يقول الحق سبحانه : " فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ " (الأعراف : ٧٧ - ٧٩) .

وفي قصة شعيب (عليه السلام) مع قومه يقول رب العزة (سبحانه) في شأنهم لما طغوا وتجبروا : " وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ " (هود : ٩٤ ، ٩٥) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ "(متفق عليه) ، فالظلم ظلمات يوم القيامة ، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله .

ومن هنا فإنني أؤكد أن عاقبة الدول الباغية إلى زوال ، ولله در شاعر النيل حافظ إبراهيم ، حيث يقول في قصيدته الرائعة "مصر تتحدث عن نفسها":

كَم بَغَت دَولَـةٌ عَلَيَّ وَجـارَت
ثُمَّ زالَت وَتِلكَ عُقبى التَعَـدّي
ما رَمـاني رامٍ وَراحَ سَليـمـا
مِن قَديمٍ عِنـايَةُ اللهُ جُنـدي

فالدول التي تقوم على البغي ، والحضارات التي ترسخ للظلم تحمل عوامل هدمها وسقوطها ، بل إن هذا البغي ليعجل بسقوط مدوي وسريع .

والجماعات التي تقوم على الاستعلاء والإقصاء والظلم والبغي وتجاوز الحد في الإجرام كتلك الجماعات التي تتبنى عمليات الانتحار والتفجير والتدمير، وتستحل ذبح الإنسان وحرقه والتمثيل به ، وإذلال البشر ، وبيع الحرائر سبايا ، وهدم الحضارات ، وتخريب العامر ، ونقض البنيان ، وإحراق الأخضر واليابس ، وإهلاك الحرث والنسل ، إنما تحمل عوامل سقوطها وسر دمارها وهلاكها ، لأن الله (عز وجل) لا يحب الفساد ولا الإفساد ولا المفسدين ، ومن ثمة فإني أبشر بهلاك عاجل لداعش وأخواتها من القاعدة ، وأعداء بيت المقدس ، وبوكوحرام ، وسائر الجماعات الإرهابية والظلامية والمتطرفة والمعوجة ، " وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ " (يوسف: ٢١) .

* * *

الإسلام دين الفطرة السليمة ، حيث يقول سبحانه :" فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ " (الروم : ٣٠) .

ولا شك أن الإسلام قائم على كل ما ينمي الذوق ، ويرسخ القيم الإنسانية السوية ، ويسهم في تكوين الرقي الشخصي والمجتمعي ، وينشر القيم الحضارية ، ويؤدي إلى تأصيلها وتجذيرها في نفوس الناس جميعًا .

ولا شك أن للمرء من حياته ما تعود ، فإذا ما تعود الإنسان على التحضر والرقي فيما بينه وبين نفسه صار ذلك سمة وسجية وطبعًا له فيما بينه وبين الناس ، أما إذا حافظ الإنسان على مظاهر التحضر أمام الناس وخالف ذلك فيما بينه وبين نفسه دخل في باب النفاق النفسي والاجتماعي وما يعرف بانفصام الشخصية ، وربما خانه طبعه وما تعوده من مخالفة الذوق والرقي في خلوته فبدا ظاهرًا جليًّا عفويًّا ، ولو بدون قصد فيما بينه وبين الناس .

ومن هنا كان حرص الإسلام على تعليم الإنسان القيم الراقية وتعويده عليها منذ نعومة أظافره سواء فيما بينه وبين نفسه أم فيما بينه وبين الناس ، وهذا نبينا (صلى الله عليه وسلم) عندما يرى صبيًّا تطيش يده في إناء

الطعام، فيعلمه ويوجهه بما يهذب ذوقه وطبعه ، فيقول (صلى الله عليه وسلم) " يَا غُلَامُ ، سَمِّ الله وَكُلْ بِيَمِينِكَ وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ " (متفق عليه) ، سواء أكان ذلك فيما بينه وبين نفسه أم حال مشاركته الناس طعامهم ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " أَغْلِقُوا الْبَابَ وَأَوْكِئُوا السِّقَاءَ وَأَكْفِئُوا الْإِنَاءَ أَوْ خَمِّرُوا الْإِنَاءَ وَأَطْفِئُوا الْمِصْبَاحَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَفْتَحُ غَلَقًا وَلَا يَحِلُّ وِكَاءً وَلَا يَكْشِفُ آنِيَةً " (سنن الترمذي) .

على أن في قوله (صلى الله عليه وسلم) : " وَأَطْفِئُوا الْمِصْبَاحَ " ما يشير إشارة واضحة إلى ضرورة ترشيد الطاقة ، وقد نهى (صلى الله عليه وسلم) عن الإسراف سرًّا وعلنًا ، خلوًّا أو مجتمعًا ، مما يؤصل في نفس الإنسان ثقافة الترشيد والبعد عن الإسراف والتبذير .

هذا وقد نجد بعض الناس هاشًّا باشًّا بين الناس بحيث يغبطه من لا يعرف حقيقته ، فإذا ما عاد إلى أهل بيته لبس ثوبًا آخر ، وجلدًا آخر ، وبدا بوجه آخر يتناقض تماما مع ما يعرف به بين الناس من البشاشة وطلاقة الوجه ، بحيث يقف القاعد ويسكت الناطق من أبنائه وأهل بيته خوفًا لا أدبا .

مع تأكيدنا أن الإنسان إذا ما هذب ما بينه وبين نفسه وسيطر عليها طواعية ، مراقبة لله عز وجل واحتراما لذاته كان أكثر سيطرة عليها

وأملك لزمامها بين الناس وفي المناسبات العامة ، أما إذا كان غير ذلك فالطبع يغلب التطبع، وليس الجمال كالتجمل ، مما قد يكشف حقيقته ويعرضه لمواقف محرجة فيما لا يحب أحد أن يحرج فيها .

* * *

السلام النفسي

ما أجمل أن يعيش الإنسان في سلام مع نفسه ، وسلام مع أسرته ، وسلام مع عائلته ، وسلام مع جيرانه ، وسلام مع زملائه ، وسلام مع أصدقائه ، وسلام مع المجتمع ، وسلام مع الناس أجمعين ، غير أن هذا السلام لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال نفوس صافية تحكمها ضوابط إيمانية وإنسانية راقية ، من أهمها ، أن يكون للإنسان وجه واحد ظاهره كباطنه ، لا أن يكون من ذوي الوجهين الذين يلقى الواحد منهم هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " مِنْ شَرِّ النَّاسِ ذُو الْوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ وَهَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ "(صحيح مسلم).

ومنها أن يكون محبًا للخير للناس أجمعين ، رحيمًا ، ودودًا ، سهلاً ، هينًا ، لينًا ، يألف ويؤلف ، فالمؤمن يألف ويؤلف ، والكافر فظ غليظ لا يألف ولا يؤلف ، والمؤمن مفتاح للخير مغلاق للشر ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحَ لِلْخَيْرِ مَغَالِيقَ لِلشَّرِّ ، وَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحَ لِلشَّرِّ مَغَالِيقَ لِلْخَيْرِ ، فَطُوبَى لِمَنْ جَعَلَ الله مَفَاتِيحَ الْخَيْرِ عَلَى يَدَيْهِ، وَوَيْلٌ لِمَنْ جَعَلَ الله مَفَاتِيحَ الشَّرِّ عَلَى يَدَيْهِ "(سنن ابن ماجه)، ويقول (صلى الله عليه وسلم) :" لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ" (متفق عليه) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ الله وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لله وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ" (صحيح

البخاري) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ : الْإِمَامُ الْعَادِلُ ، وَشَابٌّ نَشَأَ بِعِبَادَةِ الله، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي الله اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُه مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ"(متفق عليه).

ولا يمكن للإنسان أن يكون في سلام مع نفسه أو مع الآخرين إلا إذا كان منصفًا للآخرين من نفسه يعمل في إطار الحقوق المتكافئة المتبادلة ، ويطبق عن قناعة مبدأ الحق والواجب ، فالعلاقة بين الرجل والمرأة تقوم على الحقوق المتبادلة ، يقول الحق سبحانه :" وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ" (البقرة : ٢٢٨)، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " أَلاَ إِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا ، فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ فَلاَ يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ ، وَلاَ يَأْذَنَّ فِي بُيُوتِكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ ، أَلاَ وَإِنَّ حَقَّهُنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِنَّ فِي كِسْوَتِهِنَّ وَطَعَامِهِنَّ" (سنن الترمذي) .

والعلاقة بين المواطن والدولة ، وبين العامل ورب العمل ، تقوم على الحق والواجب ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) فيما يرويه عن ربه سبحانه : " قَالَ الله : ثَلاَثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ

يُعْطِ أَجْرَهُ" (صحيح البخاري) ، أما من تغلبه شهوته وأنانيته ، فكما يقولون : ما استحق أن يولد من عاش لنفسه .

وهذا السلام النفسي يقتضي أن يؤمن كل منا بحق الآخر في الحياة الكريمة الآمنة المستقرة ، ويدرك أن هناك قواسم إنسانية مشتركة أجمعت عليها جميع الشرائع السماوية ، يؤدي الالتزام بها والوفاء بمتطلباتها إلى أن تسود الطمأنينة والاستقرار والسلام النفسي والمجتمعي بين الجميع ، ومن هذه المشتركات ما يعرف بالوصايا العشر التي وردت في أواخر سورة الأنعام ، يقول سبحانه :"قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ "(الأنعام :١٥١ - ١٥٣)، فقد قال

سيدنا عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) : هذه آيات محكمات لم ينسخهن شيء من جميع الكتب ، وهى محرمات على بني آدم جميعاً، وهن أم الكتاب "أي أصله وأساسه " ، من عمل بهن دخل الجنة ، ومن تركهن دخل النار.

فلو نظرنا فيما تضمنته هذه الآيات الكريمات من جوانب إنسانية لوجدنا أنها تعد مشتركًا إنسانيًّا بين بني البشـر ، وتسهم في تحقيق أعلى درجات التعايش السلمي فيما بينهم ، حيث تقوم على حرمة قتل النفس أي نفس وكل نفس ، فكل الدماء مصونة ، وكل الأعراض محفوظة ، " وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ " ، ومال اليتيم والضعيف مرعي ومصان ، مع الوصية بالعدل مع القريب والبعيد على حد سواء ، والوفاء بعهد الله مع الجميع المسلم وغير المسلم ، الصديق والعدو ، وإقامة الكيل والميزان بالقسط ، والبعد عن المال الحرام وكل ألوان الاستغلال والتطفيف والغش والخداع ، مما يحقق أعلى درجات الحياة الآمنة في كل جوانبها ، ويحقق للإنسان سلام النفس فيما بينه وبين نفسه ، وبينه وبين مجتمعه ، وبينه وبين الإنسانية ، بل الكون كله .

* * *

الصديق الذي نبحث عنه

الصديق الذي نبحث عنه هو من قال عنه مصطفى صادق الرافعي (رحمه الله) : هو من إذا غاب لم تقل إن أحدًا غاب عنك ولكن تشعر أن جزءًا منك ليس فيك ، فهو قطعة منك ، ليس ذلك الصديق الذي يماسحك كما يماسحك الثعبان ، ويراوغك كما يراوغك الثعلب ، أو يقبع منك كما يقبع القنفذ ، فهؤلاء الأصدقاء لا تجدهم إلا على أطراف مصائبك ، فهم كالذباب لا يقع إلا حيث يكون العسل .

إن الصديق الحق الذي نبحث عنه ، هو من قال عنه الإمام الشافعي (رحمه الله) :

إن الصَّديقَ الحقَّ منْ كان مَعَـك
وَمَـنْ يَضُـرُّ نَفْسَـهُ لِيَنْفَعَـك
وَمَـنْ إِذَا رَيْبُ الزَّمَانِ صَدَّعَـك
شَتَّـتَ نَفسَـهُ فِيـكَ لِيَجْمَعَـك

لا كهذا الذي قال عنه الشاعر القاضي العماني أبو سرور حميد بن عبد الله :

مالي أراكَ وأنتَ كنتَ صَديقِي باعَدتَني زمنًا بكل عقُـوق
قَد كنتَ مَن أعْددتُه لنَوائبِـي لَو عَضَّني نابُ الزمَان بضِيـق
أوحى إليكَ بأنَّ دَهْري عَقَّني فطفقت أنتَ تعين بالتَّصفِيـق

ومتَى تَبينت الحقيقَة أننِـــــي جَللا حللت بمنْصِبٍ مَرمُـوق
قَد جِئتَني تَسعَى تهنئ بالمنَى عجبًا لأمركَ في رضًا وعقُـوق
إنَّ المحَبةَ في الفُـؤادِ مكَانهَـا تَبدُو حقَـائقـهَا مَع التضييـق

وقد قيل لأحدهم : من أصدقاؤك ؟ فقال : لا أعلم ، قيل له : لماذا ؟ قال : لأن الدنيا مقبلةٌ عليّ ، فإن أدبرت عرفت عدوي من صديقي ، لأن أكثر الناس يدورون مع الزمان حيث دار ، فإن كان معك كانوا معك ، وإن كان عليك كانوا عليك ؛ ولذا قالوا : الصديق وقت الضيق، وقال الشاعر :

جَـزَى الله المصَـائبَ كل خَيرٍ عَرفْتُ بهَا عَدُوي من صَدِيقي

وقال آخر :

رَأَيْتُ النَّـاسَ قَد ذَهَبُوا إلَى مَنْ عِنْـدَهُ ذَهَـــب
وَمَنْ لا عِنْدهُ ذَهَـــب فَعَنْـهُ النَّاسُ قَـد ذَهَبُوا
رَأَيْتُ النَّـاسَ مُنْـفَضَّـه إلَى مَنْ عِـنْـدَهُ فِـضَّـه
وَمَنْ لا عِنْــدهُ فِضَّـــه فَعَنْـهُ النَّاسُ مُنْفَـضَّــه
رَأَيْتُ النَّاسَ قَـدْ مَالُـوا إلَى مَنْ عِنْـدَهُ مَـــال
وَمَنْ لا عِنْــدهُ مَـــال فَعَنْـهُ النَّاسُ قَـدْ مَالُـوا

وقال الآخر:

يُحَيَّا بالسَّلامِ غَنيّ قَومٍ ويُبخَلُ بالسَّلامِ عَلى الفَقِير

أليْسَ الموتُ بَينهُما سَواء إذا مَاتُوا وصَارُوا في القُبور

إن الصديق مشتق من الصدق ، فهو من يصدقك في السر والعلن ، في البأساء والضراء ، في المنشط والمكره ، من يحب لك ما يحبه لنفسه ، ويكره لك ما يكره لنفسه ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ " (متفق عليه) ، ويقول : (صلى الله عليه وسلم) : " ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ : أَنْ يَكُونَ الله وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لله ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ " (متفق عليه) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ الله في ظِلِّهِ يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ : إمامٌ عادِلٌ ، وشابٌّ نَشَأَ في عِبادة الله تعالى ، ورَجُلٌ قَلْبُه مُعَلَّقٌ بالمساجد ، ورَجُلانِ تَحَابَّا في الله: اجْتَمَعَا عليه وتَفَرَّقَا عليه ، ورجلٌ دَعَتْه امرأةٌ ذاتُ مَنْصِبٍ وجَمَالٍ فقال: إني أَخاف الله ، ورجلٌ تصدَّق بصَدَقَةٍ ، فأَخْفَاهَا حتّى لا تَعْلَمَ شِمَالُه ما تُنْفِقُ يَمِينُه ، ورجلٌ ذكر الله خاليا ، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ " (متفق عليه) .

وروي " أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى ، فَأَرْصَدَ اللهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا ، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ ، قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لَا، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي الله عَزَّ وَجَلَّ ، قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكَ بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ "

(صحيح مسلم) ، وفي الحديث القدسي: "وَجَبَتْ مَحَبَتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ ، وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ " (مسند أحمد)، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم):" الْمُتَحَابُّونَ فِيَّ الله لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَغْبِطُهُمُ الشُّهَدَاءُ" (الحاكم في المستدرك) ، فما أجمل أن تكون العلاقات والصداقات خالصة لوجه الله عز وجل ، قائمة على الحب والمودة والإنسانية والإيثار ، مبنية على المروءة والقيم والأخلاق السوية ، بعيدًا عن كل ألوان الأنانية والنفعية والانتهازية المقيتة .

* * *

مرضاة الله ومرضاة الخلق

مرضاة الله غاية كل مؤمن ، والسعي لها مقصد كل مخلص ، وهي سبيل المتقين ، ومنهج السالكين ، من سعى إليها رزق ، ومن عمل لها أجر وجبر ، ذلك أن ربّ العزة (عز وجل) قد قال في حديثه القدسي : " أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِي ، والله لله أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالْفَلَاةِ ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا ، وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أُهَرْوِلُ " (متفق عليه) .

أما رضا الخلق كلِّ الخلق فغاية لا تدرك ، ومرام لا ينال ، ذلك أن أي إنسان لا يمكن أن يسع الناس كل الناس بماله ، ولا بجاهه ، ولا بسلطانه ، حيث إن مطالب الناس منها ما هو منطقي ومشروع ، ومنها ما ليس منطقيًّا ولا مشروعًا ، ومنها ما هو في الطاقة والإمكانية ، وقابل للاستجابة والتحقيق ، ومنها ما هو فوق الطاقة والإمكانية بالنسبة للأفراد ، وما يحتاج إلى وقت لتنفيذه وفق إمكانات المؤسسات والدول ، غير أن المسئولية الفردية والتضامنية والتكافلية تقتضي أن نعمل معًا على كل المستويات لقضاء حوائج الناس ، وبما يحقق لهم مقومات الحياة الإنسانية الكريمة ، ويطيب لي أن أسجل الآتي :

١- أن العمل على مرضاة الناس وتحقيق رضاهم فيما هو قانوني ومشروع طريق واسع إلى مرضاة الله (عزّ وجلّ) ، فمن يسَّـر على معسـر يسَّـر الله عليه ، ومن فرج عن إنسان كربة فرج الله (عزّ وجلّ) عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر إنسانًا ستره الله في الدنيا والآخرة ، ومن مشى في حاجة إنسان حتى يقضيها كان الله في حاجته ، فعن سيدنا عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) قال : سمعت صاحب هذا القبر والعهد به قريب - يعني نبينا محمدًا (صلى الله عليه وسلم) - يقول: " مَنْ مَشَى فِي حَاجَةِ أَخِيهِ وَبَلَغَ فِيهَا كَانَ خَيْرًا لَهُ مِنَ اعْتِكَافِ عَشْرِ سِنِينَ ، وَمَنِ اعْتَكَفَ يَوْمًا ابْتِغَاءَ وَجْهِ الله جَعَلَ الله بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ ثَلاثَةَ خَنَادِقَ ، أَبْعَدُ مَا بَيْنَ الْخَافِقَيْنِ" (الطبراني في المعجم الأوسط).

٢- أن العاقل الحكيم لا يعمل على مرضاة الناس بمعصية رب العباد ومخالفة أوامره ونواهيه ، كأن تكون مرضاة الخلق على حساب الحق والعدل والقانون ، وكما قالوا : أنت صديقي والحق صديقي ، فإن اختلفنا فالحق أولى بالصداقة ، فمن طلب رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس ، ومن طلب رضا الله بإكرام الناس ، وحسن معاملتهم دون شطط أو تجاوز ، أو مخالفة شرعية أو قانونية رضي الله عنه ، وأرضى عنه الناس ، ذلك أن قلـوب العبـاد بين إصبـعين من أصـابـع الرحمـن يقلبها

ويوجهها كيف يشاء .

٣- أننا مأمورون بالتوازن بين أمريّ الدنيا والآخرة ، فيجب علينا أن نعمل على عمارة الكون ، وبناء الحضارة ، وأن نعمل بالتوازي لأمر آخرتنا، وهذا سيدنا سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) يقول : كَانَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) يَعُودُنِي وَأَنَا مَرِيضٌ بِمَكَّةَ، فَقُلْتُ : لِي مَالٌ، أُوصِي بِمَالِي كُلِّهِ؟ قَالَ : (لاَ) قُلْتُ : فَالشَّطْرِ؟ قَالَ: (لاَ) قُلْتُ: فَالثُّلُثِ؟ قَالَ: "الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ ، إِنَّكَ إِنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَهْمَا أَنْفَقْتَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ، حَتَّى اللُّقْمَةَ تَرْفَعُهَا فِي فِيِّ امْرَأَتِكَ ، وَلَعَلَّ الله يَرْفَعُكَ ، يَنْتَفِعُ بِكَ نَاسٌ ، وَيُضَرُّ بِكَ آخَرُونَ" (متفق عليه) ، وفي الأثر : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا .

٤- لقد آثرت التعبير في جانب رضا الله (عز وجل) بلفظ "مرضاة" لأن زيادة المبنى زيادة في المعنى ، وعلى المؤمن الصادق أن يطلب في جانب مرضاة رب العزة أعلى درجات الرضا ، ويكون ذلك بالعمل على تحقيق أعلى درجات التقوى، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى: "يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ " (آل عمران : ١٠٢) .

أما في جانب الخلـق فقـد آثرت التعبـير بكلمة (رضا) وهي أن أقــل الصيغ مبنى أقلها معنى ، ذلك أنك لو اجتهدت في إدراك أدنى درجات رضا الخلق جميعًا فلن تدرك ، مالم يشملك رب العزة بعنايته ورعايته ، فيفتح لك من قلوب العباد ما أراد ، وذلك حيث يقول الحق سبحانه مخاطبًا سيد الخلق وخاتم الأنبياء والمرسلين (صلى الله عليه وسلم):" وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ " (الأنفال: ٦٣) ، فيجب أن نعمل على رضا الخلق بمرضاة الخالق لا بغضبه ولا بمخالفة أمره .

* * *

مفهـوم الاحتـرام

الاحترام ليس شعارًا ، إنما هو منتهى العفة في اللسان ، والترفع في السلوك ، والوفاء في العهد والوعد ، والإسراع في رد الجميل ، ومقابلة الإحسان بمثله بل بأفضل منه ، حيث يقول الحق سبحانه : " وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ " (النساء : ٨٦) ، ويقول (عز وجل): " وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ " (فصلت : ٣٤-٣٥).

إنه الترفع عن الصغائر والدنايا ، واجتناب كل ما يخل بالمروءة والكرامة ، سواء في مطعم ، أم في ملبس ، أم في مجلس ، أم في ولوج مواطن الشبهات .

إنه الصدق في القول ، والرحمة في غير ضعف ، والتواضع في غير ذل ، والقوة في الحق ، بلا تردد وبلا تجاوز ولا عنف ، والصفح والحلم عند المقدرة ، والتجاوز عن المعسر ، وإنظار الموسر .

إنه التحلي بالإيثار لا الاتصاف بالأثرة أو الأنانية ، إنه البعد عن كل ما يشين من الحمق والطيش والنزق ، والاستغلال ، والاحتكار ، والغش ،

والتدليس ، والظلم ، والإفك ، والافتراء ، والبهتان .

إنه الاعتراف بحق الآخرين ، وحب الخير لهم ، وحسن الإنصات إليهم، وعدم الاستهانة بهم ، أو التقليل من شأنهم .

إنـه وضـع الشيء في موضعـه من احترام الكبيـر ، ورحمـة الصغـير ، وإنزال العلماء والعظماء منازلهم ، حيث يقول سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :"لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا" (سنن الترمذي) ، ولما رأى (صلى الله عليه وسلم) سيدنا سعد بن معاذ (رضي الله عنه) : قال للأنصار : "قوموا إلى سيدكم" (متفق عليه) ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : " إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه " (المعجم الكبير للطبراني)، ولما تولى سيدنا أبو موسى الأشعري (رضي الله عنه) ولاية الكوفة جعل يفتح أبوابه للناس جميعًا ، فكانت العامة والدهماء تسارع إلى مجلسه ، حتى إذا جاء العلماء والقراء وشيوخ القبائل ورءوس الناس لم يجدوا لهم موضعًا فينصرفوا ، فكتبوا إلى سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بذلك ، فكتب إلى سيدنا أبي موسى الأشعري (رضي الله عنه): ما هكذا أبا موسى يكون الفقه ، إذا فتحت بابك فائذن للعلماء والقراء ورءوس الناس ، فإذا أخذوا أماكنهم فاسمح لعامة الناس .

وإذا كان الاحترام مطلوبا على كل حـال ومن كل فئـة ، فإنه في مجـال العلم

وبين أهل العلم ألزم وأوجب .

غير أنا مما ابتلينا به في زماننا هذا تجرؤ الجهلاء على العلماء ، والدهماء على العظماء ، والرويبضة على أهل العلم والفكر ، حتى صار بعض الناس يتخذون من مرشديهم غير المؤهلين رءوسًا جهالا فيستفتون فيفتون بغير علم فيضلون ويضلون .

وقد عد العقلاء من طامة الدهر ومصائبه وابتلاءاته انقلاب الأحوال ووضع الأمور في غير نصابها ، حتى قال أحدهم :

مَتَى تَصِلُ العِطاشُ إِلى ارْتِــوَاء
إِذَا اسْتَقَتِ البِحَارُ مِنْ الرَّكَايَا؟!
وإِنَّ تَرَفُّــعَ الوُضُــعَاءِ يَوْمــا
عَلَى الرُّفَعَـاءِ مِنْ أدهى الرَّزَايــا
إِذَا اسْتَــوَت الأَسَافِلُ والأَعَـالي
فَقَدْ طَــــــابَتْ مُنَادَمَةُ المَنَـايَا

وقد سئل الإمام أحمد بن حنبل (رحمه الله تعالى) : كم يكفي الرجل من الحديث حتى يمكنه أن يفتي؟ أيكفيه مائة ألف حديث ؟ قال : لا ، قيل : مائتا ألف ؟ قال : لا ، قيل : ثلاثمائة ألف ؟ قال : لا ، قيل : أربعمائة ألف ؟ قال : لا ، قيل : خمسمائة ألف ؟ قال : أرجـو ، أي أرجـو أن يكفيـه ، وكان

ابن دقيق العيد (رحمه الله تعالى) يقول :

يقُولونَ هَـذا عِندَنا غيرُ جَــائـز

ومنْ أنتمُ حتى يكونَ لكم عِنْد؟

ويقول الآخر في تجرؤ الجهلاء على العلم والفتوى:

فحُقَّ لأهْـلِ العِـلْم أن يتمثَّلـوا

ببيتٍ قديمٍ شاعَ في كلِّ مجــلس

لقــد هُزِلَت حتى بدا من هُزالها

كُلاها وحتى سامها كل مُفلس

* * *

أزمة الأخلاق والقيم

الاعتراف بالأزمة أول طرق حلها ، والسؤال الذي يطرح نفسه : هل نحن أمة الأخلاق حقًّا تنظيرًا وتطبيقًا ؟ وهل نحن على الطريق الصحيح في ذلك ؟ وهل نحن على مستوى موروثنا الحضاري وخلفياتنا الثقافية ؟ أو أن مجتمعاتنا تتعرض لموجات حادة تعمل على زلزلة القيم المتأصلة في أعماق مجتمعاتنا ؟.

أما من جهة التنظير فربما لا يماري أحد أننا أمة الأخلاق والقيم ، وأن رسالة نبينا (صلى الله عليه وسلم) مبنية على مكارم الأخلاق ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ " (مسند البزار) ، وفي رواية : " إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ حُسْنَ الأَخْلاَقِ" (موطأ مالك) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ "(صحيح مسلم) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا " (سنن الترمذي) ، ولما سئل (صلى الله عليه وسلم) : ما أكثر ما يدخل الجنة ؟ قال (صلى الله عليه وسلم) : " أَكْثَرَ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ تَقْوَى الله وَحُسْنُ الْخُلُقِ" (مسند أحمد) .

ومن يراجع ثقافتنا المصرية منذ القدم ما دُوِّن منها على البرديات وما

سجل على الحفريات يدرك أننا أمة الأخلاق والقيم ، ومن يرجع بالذاكرة لعدة عقود مضت يجد عراقة وأصالة ونبلاً .

وقد عُرف العربي حتى في جاهليته بالنبل ، والشهامة ، والنخوة ، والمروءة ، والكرم ، والوفاء ، والحمية للأرض والعرض .

وجاء الإسلام فأكد على هذه القيم النبيلة وعمل على ترسيخها وتزكيتها وتوجيهها اتجاهًا أكثر صفاءً ونقاءً ، فخلَّص صفات الكرم والنخوة والمروءة مما علق بها من المفاخرة والمباهاة إلى ابتغاء وجه الله وصالح الإنسان، لتتغير من المباهاة والمفاخرة والمن والأذى ، واقتصارها على أكابر الناس دون مساكينهم إلى شمولها وعمومها وإخلاص النية فيها لله (عز وجل) ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى :" وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا " (الإنسان : ٨-١٢) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : "بِئْسَ الطَّعَامُ طَعَامُ الْوَلِيمَةِ، يُدْعَى إِلَيْهِ الْأَغْنِيَاءُ وَيُتْرَكُ الْمَسَاكِينُ" (صحيح مسلم) .

لكننا للأسف أخذنا نلحظ جانبًا من الانحراف عن مستوى السلوك

القويم ، فصار البعض ينحرف عن جادة الطريق ، وأخذنا نرى بعض السلوكيات الغريبة على قيمنا ومجتمعاتنا وحضارتنا وثقافتنا الرصينة ، مما يجعلنا في حاجة ماسة إلى أن نعود إلى ديننا وأخلاقنا وقيمنا ، فما أحوجنا إلى صحوة ضمير محفوفة ومحفوظة بالإيمان بالله (عزّ وجلّ) ، والخوف منه ، وحسن مراقبته سبحانه وتعالى ، حيث يقول (عزّ وجلّ) : "وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١" (البقرة : ٢٨١) ، ويقول سبحانه : " أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٧" (المجادلة : ٧) .

* * *

تأملات في آية الدَّيْنِ

لقد حرص القرآن الكريم على حماية الحقوق الإنسانية بصفة عامة ، والحقوق المالية بصفة خاصة ، وليس غريبًا أن تكون أطول آية في القرآن الكريم – المعروفة بآية الدَّيْن – تدور حول حماية الحقوق وصيانتها وحفظها وتوثيقها ، حيث يوجهنا القرآن الكريم إلى كتابة الدين وتوثيقه صغيرًا كان أو كبيرًا إلى أجله المسمى ، حيث يقول سبحانه : " يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ " (البقرة : ٢٨٢)، وعلى أن يكتب الكاتب بالعدل ، حيث يقول سبحانه : "وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ "، والتعبير بلفظ " بَيْنَكُمْ " يأتي تأكيدًا على أن يكون الكاتب على مسافة واحدة من الدائن والمدين ، دون أي ميل أو انحراف تجاه أحدهما على حساب الآخر ، وأن يكون الكاتب في منطقة وسط بين الطرفين.

ثم يقول سبحانه : " وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ "، أي فليكتب وفق ما علمه الله وما شرعه الله ، مؤديًّا زكاة علمه الذي علمه الله إياه ، أو فليكتب وفق ما علمه الله ، مؤديًّا شكر ما علمه الله إياه ، فزكاة كل شيء إنما تكون من جنسه .

ويقول سبحانه : " وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ "، تثبيتًا وتحقيقًا لأمر الديَّن وقيمته ووصفه ، " وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا "، أي ولا يبخس منه شيئًا لا في الإملاء ، ولا في الأداء ، ولا في الوفاء ، " فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ " ، فالعدل مطلوب ومؤكد عليه دائمًا من الأصيل أو الوكيل ، من الدائن أو وليّه ، من الكاتب أو الشاهد ،" وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ " ، رجالا كانوا أم نساءً .

كما أن المستحب هو كتابة الدَّين صغيرًا كان أو كبيرًا ، مع تقديم الصغير على الكبير للاهتمام به ، وعدم التفريط في الحق ، أو إهمال التوثيق صغر الديَّن أم كبر ، " وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ " (البقرة : ٢٨٢).

وهنا موطنٌ فريدٌ من مواطن البلاغة ، حيث عبر النص القرآني بكلمة لا يحل محلها غيرها ، ولا يدانيها في دلالتها أي لفظ آخر في أي لغة من اللغات ، وهو لفظ " يُضَآرَّ " في قوله تعالى : " وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ " ، حيث قرئ بالفك والكسر " ولا يضارِرْ " ، وبالفك والفتح "ولا يضارَرْ " ، وبِنْيَة الفعل " يُضَآرَّ " الصرفية تسمح بالقراءتين ، وهو بذلك يحمل معاني عديدة ، فلا يضارر الدائن الكاتب ولا الشهيد ، ولا يضارِرْ المدين الكاتب ولا الشهيد ، ولا يضارر الكاتب أو الشهيد الدائن أو المدين ، فليكتب هذا بالعدل ، وليشهد هذا بالحق ، ولا يضار الكاتب بكتابته ، ولا الشهيد بشهادته ، وهذه المعاني مجتمعة لا يمكن أن يحمل دلالاتها كلها أي لفظ آخر ، لا في العربية ولا في غيرها سوى هذا اللفظ الذي عبر به القرآن الكريم في قوله (عز وجل) : " وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ".

وهذا وجه من وجوه إعجاز هذا الكتاب العزيز ، الذي يهجم عليك الحسن منه دفعة واحدة ، فلا تدري أجاءك الحسن من جهة لفظه أم من جهة معناه ، إذ لا تكاد الألفاظ تصل إلى الآذان حتى تكون المعاني قد وصلت إلى القلوب .

□

الجمال الحقيقي والصداق الحقيقي

الجمال الحقيقي هو جمال الجوهر ، وجمال النفس ، وجمال الروح ، وجمال الخلق ، وجمال العقل ، فإذا انضم إلى هذا الجمال جمال المظهر ، فما أجمل الإنسان إذا سرك مظهره ومخبره معًا ، غير أن جمال النفس ومظهرها وسموها هو المقدم وهو الأعلى قيمة ، والأبعد أثرًا ، وعليه مدار التفاضل الحقيقي ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " إِنَّ الله لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ " (صحيح مسلم).

ويقول أديب العربية الكبير مصطفى صادق الرافعي في مقال له تحت عنوان " في فلسفة المهر" : إن خير النساء من كانت على جمال وجهها في أخلاق كجمال وجهها وكان عقلها جمالاً ثالثًا ، فهذه إن أصابت الرجل الكفء يسرت عليه ، ثم يسرت ، ثم يسرت ؛ إذ تعتبر نفسها إنسانا يريد إنسانًا ، لا متاعا يطلب شاريًا ، وهذه لا يكون رخص القيمة في مهرها ، إلا دليلاً على ارتفاع القيمة في عقلها ودينها .

ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " إِذَا أَتَاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ خُلُقَهُ ودِينَهُ فَزَوِّجُوهُ ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ " (سنن ابن ماجة) ، فقد اشترط النبي (صلى الله عليه وسلم) الدين على أن يكون مرضيًّا لا أي الدين كان ، والخلق على أن يكون مرضيًّا لا أي الخلق كان ، وقال

(صلى الله عليه وسلم): " تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ : لِمَالِهَا ، وَلِحَسَبِهَا وَلِجَمَالِهَا ، وَلِدِينِهَا ، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ " (متفق عليه) .

والسؤال الذي يطرح نفسه : لماذا الدين والخلق أولا ؟ وقبل جمال الشكل والمظهر ، والإجابة أن الجوهر قبل المظهر ، وأن الجمال أمر نسبي وقابل للتغيير أو الزوال ، أما الدين والخلق فهما المعدن الأصيل الذي لا يصدأ أبدًا .

فماذا لو كان الاختيار على أساس الجمال فحسب ، والجمال أمر نسبي وما تراه جميلاً اليوم ربما لا تراه جميلاً غدًا ، وماذا لو رأى الشاب بعد ذلك امرأة أجمل أو رأت المرأة شابًّا أجمل منه ؟ بل ماذا لو عرض لهذا الجمال ما يذهبه أو يشوهه ؛ كأن تعرضت الزوجة أو الزوج أو الفتى الوسيم لحادث أو لمرض أذهب جماله وبهاءه فكيف تكون الحياة آنذاك ؟ وهي قد بنيت أصلا على الجمال الظاهري لا غير .

أما الدين والخلق فهما المعدن النفيس الذي يتجدد بتجدد الأيام ، فحتى لو ذهب المال أو ذهب الجمال فإنما يبقى الدين والخلق ، فصاحب الدين والخلق إن أحب زوجه أكرمها ، وإن أبغضها لم يبخسها حقها ، حتى صداق المرأة الحقيقي فهو ليس ما يقدم إليها من مال أو ذهب أو صداق ، إنما هو ما تجده من حسن المعاملة ، يقول الرافعي : الصداق الحقيقي ليس

ذلك المال الذي يُدفع إلى المرأة وهي في بيت أبيها قبل أن تذهب إلى بيت زوجها ، صداقها الحقيقي معاملتها التي تجدها في بيت زوجها بعد أن تُحمل إلى داره ؛ مهرها معاملتها ، تأخذ منه يومًا فيومًا ، فلا تزال بذلك عروسًا على نفس زوجها ما دامت الحياة بينهما .

أما ذلك الصداق من الذهب والفضة ، فهو صداق العروس الداخلة على الجسم لا على النفس ؛ أفلا تراه كالجسم يهلك ويبلى ؟ أفلا ترى هذه الغالية - إن لم تجد النفس في رَجُلها - قد تكون عروس اليوم ومطلقة الغد؟! ، وما الصداق في قليله وكثيره إلا كالإيماء إلى الرجولة وقدرتها ، فهو إيماء ، ولكن الرجل قبْل .

إن كل امرئ يستطيع أن يحمل سيفًا ، والسيف إيماء إلى القوة ، غير أنه ليس كل ذوي السيوف سواء ، وقد يحمل الجبان في كل يد سيفًا ويملك في داره مائة سيف ، فهو إيماء ، ولكن البطل قبْلُ ، ولكن البطل قبْلُ .

إذن فالقضية ليست في الشكل فحسب ، إنما هي في المعنى والمضمون ، وليس الجمال الحقيقي هو جمال المظهر ، إنما هو جمال الجوهر ، وليس الصداق الحقيقي هو المال والذهب ، إنما هو في الدين والخلق وحسن المعاملة .

* * *

□

الخسران المبين

لاشك أن الخسران المبين إنما هو لمن خسر الدنيا والآخرة ، حيث يقول سبحانه : " وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ " (الحج : ١١) .

فالخسران المبين هو المعادل اللغوي ، والموضوع الأنسب والأدق لمن خسر دنياه وآخرته ، والأدهى والأمرّ أن يخسر الإنسان دنياه وآخرته جهلاً وحمقًا وسفهًا وزيفًا وضلالاً ، وهو يحسب أنه ممن يحسنون صنعا ، حيث يقول الحق سبحانه في سورة الكهف : " قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا " (الكهف : ١٠٣-١٠٤)، وحيث يقول سبحانه في سورة الأعراف:" فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ " (الأعراف : ٣٠).

على أن هؤلاء الشياطين من الإنس والجن هم أول وأسرع من يتبرأون من أتباعهم يوم القيامة ، حيث يقول الحق سبحانه في سورة إبراهيم (عليه السلام) :" وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ

وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ " (إبراهيم:٢٢) ، ويقول سبحانه : " وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ "(الأنعام:١٢٨-١٢٩) ، ويقول سبحانه: "فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ " (غافر : ٤٧-٤٨) .

وعلى الجملة فإن الذين اتُّبعُوا سيتبرأون من الذين اتَّبعوهم ، حيث يقول الحق سبحانه: " إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ

مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ " (البقرة : ١٦٦-١٦٧) ، وساعتها سيندم هؤلاء المتبعون مما أصابهم جراء اتباعهم الأعمى ، وانسياقهم خلف شياطين الإنس والجن ، ووقوعهم في شراكهم ، حيث يصور القرآن الكريم حال النادمين حيث لا ينفع الندم ، فيقول سبحانه :" وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا " (الفرقان : ٢٧-٢٩).

وأي خسران أشد ممن يسفكون دماء الآمنين بغير حق ، بما لا يقر به دين ولا عقل ولا إنسانية ، لأن جميع الأديان تجمع على حرمة الدماء والأموال والأعراض ، حيث يقول الحق سبحانه: "مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ " (المائدة :٣٢)، ويقول سبحانه : " وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا

فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا "
(النساء : ٩٣) ، ويقول سبحانه :" وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا "
(النساء : ٩٤) ، وحيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ ، مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا " (رواه البخاري) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : "اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ قَالُوا : يَا رَسُولَ الله وَمَا هُنَّ قَالَ الشِّرْكُ بالله وَالسِّحْرُ وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ الله إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَكْلُ الرِّبَا وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلاَتِ" (رواه مسلم) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): " أَلَا إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا ، وَكَحُرْمَةِ شَهْرِكُمْ هَذَا، وَكَحُرْمَةِ بَلَدِكُمْ هَذَا " (مسند أحمد) .

* * *

عاقبة الشذوذ والانحراف

لا شك أن لله تعالى سننًا جارية في كونه وخلقه " فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا " (فاطر :٤٣) ، ومن هذه السنن أن الأمم التي بغت وطغت وتجبرت وخرجت على سنن الله الكونية وفطرته السوية كان عاقبة أمرها خُسرا ، سواء أكان الخروج على سنن الله تجبرًا وتكبرًا واستعلاءً على نحو ما كان من فرعون وهامان وقارون وعاد وثمود وأصحاب الرَّسِّ ، أم كان فسادًا أو إفسادًا ، أو أكلاً لأموال الناس بالباطل، أم تطفيفًا للكيل والميزان على نحو ما كان من أصحاب الأيكة قوم شعيب (عليه السلام) ، الذين قال لهم نبيهم:" أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ١٨١ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ١٨٢ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ " (الشعراء : ١٨١-١٨٣) ، فلم ينتهوا ولم يستجيبوا كما حكى عنهم القرآن الكريم في سورة الشعراء نفسها ، فقال سبحانه : " فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ " (الشعراء : ١٨٩) ، وكقوم صالح ، الذين قال لهم نبيهم:"فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٥٠ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٥١ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ

فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ "(الشعراء :١٥٠-١٥٢)، فطغوا وتجبروا ولم يستجيبوا، وعقروا الناقة ، على نحو ما ذكره الحق سبحانه وتعالى : "فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ " (هود:٦٥ ، ٦٦) ، أو كشواذ قوم لوط الذين خرقوا سنن الله الكونية ، قال تعالى: " فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ " (الروم :٣٠) ، ويقول سبحانه: " وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا " (الطلاق: ٨ ، ٩).

لقد تحدث القرآن الكريم عن شذوذ قوم لوط في مواطن عديدة لتسليط الضوء على سلوكهم غير الإنساني الذي أطلق عليه القرآن الكريم "الفاحشة " بالتعريف بالألف واللام ، ولم يقل " فاحشة "، وكأن فعلتهم قد صارت علمًا على الفاحشة ، بحيث تتلاشى إلى جانبها أي فاحشة أخرى، حيث يقص علينا القرآن الكريم ما كان من سيدنا لوط (عليه السلام) مع

قومه ، فيقول سبحانه :" وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ " (الأعراف : ٨٠ – ٨٢) .

وفي سورة العنكبوت ترتفع نغمة التحدي لدى هؤلاء الشواذ لنبي الله لوط (عليه السلام) إلى درجة طلبهم منه أن يأتيهم بعذاب الله إن كان من الصادقين ، وذلك حيث يقول الحق سبحانه :" وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ " (العنكبوت : ٢٨-٣٠) .

وفي اللحظات الحاسمة التي يبلغ شواذ قوم لوط فيها ذروة التحدي بمحاولة التعدي على ضيوف سيدنا لوط (عليه السلام) الذين كانوا في واقع أمرهم رسل الله الذين أرسلهم لإخراج سيدنا لوط وأهله إلا امرأته

من هذه القرية الظالم الفاسق الشاذ أهلها ، إيذانًا بدنو ساعة إهلاك الظالمين منهم جزاء فجورهم وشذوذهم ، يصور لنا القرآن الكريم هذا الحوار ، حيث يقول الحق سبحانه : " وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰٓ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ " (هود : ٦٩ ، ٧٠).

وفي قلب المحن والألم تكون الحياة والأمل " وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ " (الأنعام : ١٦٤) ، حيث يقول الحق سبحانه عن سيدنا إبراهيم (عليه السلام) في ثنايا الحديث عن إرسال الرسل لإهلاك شواذ قوم لوط: "وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ " (هود : ٧١-٧٣) ، ثم يقول الحق سبحانه : " فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ

عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ " (هود : ٧٤-٧٦).

لقد انتهى الحوار ودنت ساعة الحساب ، وهنا ينتقل النص القرآني إلى الحوار بين سيدنا لوط وشواذ قومه من جهة ، وبين سيدنا لوط ورسل الله (عز وجل) من جهة أخرى ، بما يؤكد انطماس فطرة الشواذ وعمى بصيرتهم ، وذلك حيث يقول الحق سبحانه:" وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ "(هود : ٧٧-٨٠) ، وهنا تحدث الرسل:" قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ "(هود : ٨١-٨٣) .

إنها لعاقبة تحمل العديد من العظات والعبر لمن يعتبر ، فقد أرسل الله (عز وجل) سيدنا جبريل (عليه السلام) ليقلب قرى قوم لوط رأسًا على عقب ، " جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا " وليس هذا فحسب ، فقد أرسل رب العزة عليهم حجارة قوية صلبة متتابعة من سجيل ، وعلى كل حجر منها اسم من أرسل إليه لإهلاكه ، وجدير بنا أن نتأمل هذا التعقيب في قوله تعالى : " وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ " ، ليعتبر بذلك المعتبرون في كل زمان ومكان ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ ، وَأَعُوذُ بالله أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ : لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا ، إِلاَّ فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ ، وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلاَفِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا " (سنن ابن ماجه) ، ويقول الحق سبحانه : " إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ " (النور : ١٩) ، ومن ثم يجب الاعتبار بحال من سبق من الأمم .

* * *

المواجهة الشاملة للمخدرات

كما أننا في مواجهة شاملة وحاسمة مع الإرهاب فإننا في حاجة ماسة أيضًا وعاجلة إلى مواجهة شاملة وحاسمة مع إرهاب آخر لا يقل خطورة وضراوة واستهدافا للمجتمع وشبابه - من استهداف المجتمع وشبابه بالفكر المتطرف - وهو إرهاب الإدمان والمخدرات ، فإفشال الدول ، أو إسقاطها ، أو إضعافها ، أو تفتيت كيانها بشتى السبل هو الغاية المرجوة لأعدائنا ، فإذا وجدوا في بعض شبابنا ميلا للتطرف والغلو عملوا على استقطابهم وتجنيدهم من خلال الجماعات المتطرفة ودعاة الفكر المتطرف ، ومن وجدوا فيه ميلاً للانحلال والتسيب حاولوا اجتذابه من خلال ما يناسب طبيعته ومزاجه ، سواء من جهة جره إلى جانب الإلحاد أو الإدمان أو الشذوذ ، بما يؤدي إلى تفسخ المجتمع وانحلاله وضياع شبابه .

وقد تطور الأمر في الاستهداف ، فرأينا الجماعة المتطرفة المتاجرة بالدين المتخذة منه ستارًا للمخادعة تتجه وبقوة إلى زراعة المخدرات وتجارتها لتغطية عملياتها الإرهابية وتجنيد عناصر جديدة تابعة لها من جهة ، وإفساد عقول شبابنا وإخراجهم من معادلة الصمود والمواجهة من جهة أخرى.

والمواجهة الشاملة تعني المواجهة الحاسمة لزراعة المخدرات ، وتجارها على اختلاف درجاتهم ومستوياتهم ، من أصغر مستخدَم في التوزيع إلى أكبر تاجر أو ممول ، مع تغليظ العقوبات بما يتناسب مع فظاعة الجرم ، وتكثيف

برامج التوعية وتوفير العلاج المناسب للراغبين في الإقلاع عن التعاطي ، ورعايتهم علاجيًّا ونفسيًّا وفكريًّا ، مع تكثيف التوعية دينيًّا وثقافيًّا وإعلاميًّا ، من خلال وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة ، وكذلك الأنشطة الثقافية والشبابية ، وبخاصة المحاضرات الثقافية العامة بالمدارس والجامعات .

والذي لا شك فيه أن الخمر أم الخبائث ، لأن الإنسان إذا شرب الخمر سكر، وإذا سكر هذي ، فربما قتل، أو سرق، أو ارتكب الحماقات ، وأيضًا الخمر مخلة بالمروءة ، لذا رأينا بعض العرب في جاهليتهم يهجرونها ولا يتناولونها ، ويرونها مذهبة للمروءة مسقطة لها ، فقد حرّم أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) الخمر على نفسه ، فلم يشربها في الجاهليّة ولا الإسلام ، وذلك أنّه مرَّ برجل سكران يضع يده في العذرة ويدنّيها من فيه ، فإذا وجد ريحها صرف عنها ، فقال: إنّ هذا لا يدري ما يصنع فحرّمها "، وكان أبو هريرة (رضي الله عنه) يقول :" من زنى أو شرب الخمر نزع الله منه الإيمان كما يخلع الإنسان القميص من رأسه" ، وكان الحسن البصري (رحمه الله) يقول : " لو كان العقل يشترى لتغالى النّاس في ثمنه ، فالعجب ممّن يشتري بماله ما يفسده".

على أن الإسـلام قد شدد في النهي عن شـرب الخمر أو حتى مجرد الاقتراب

من مجالسها ، فقال الحق سبحانه : " يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝٩١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ " (المائدة : ٩٠-٩٢) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : "مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَقْعُدْ عَلَى مَائِدَةٍ يُشْرَبُ عَلَيْهَا الْخَمْرُ " (مسند أحمد) .

وتشديدًا في النكير على كل من اقترب من الخمر متعاطيًا ، أو بائعًا ، أو صانعًا ، قال نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " لَعَنَ الله الْخَمْرَ وَشَارِبَهَا وَسَاقِيَهَا ، وَبَائِعَهَا ، وَمُبْتَاعَهَا ، وَعَاصِرَهَا ، وَمُعْتَصِرَهَا ، وَحَامِلَهَا ، وَالْمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ" (سنن أبي داود) .

على أن العبرة في الحكم هي حدوث الإسكار ، فكل مسكر خمر ، وما أسكر كثيره فقليله حرام ، على أن الأمر لا يقاس على من فسدت طبيعتهم من كثرة السكر ، إنما يقاس بأصحاب النفوس الصافية التي لم تلوث بالتعاطي أو الإدمان .

□

الاستعلاء في الأرض

العظمة والكبرياء لله وحده ، وفي الحديث القدسي يَقُولُ الله سُبْحَانَهُ : "الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي ، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي ، مَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا أَلْقَيْتُهُ فِي جَهَنَّمَ" (سنن أبي داود) .

فقَصْمُ الجبارين والمتجبرين سنة كونية سواء أكانوا أفرادًا أم أممًا ، فقارون عندما استعلى بماله قصمه الله وخسف به وبداره وبماله الأرض ، حيث يقول الحق سبحانه في كتابه العزيز : " إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ

عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ " (القصص : ٧٦-٨١) .

وقوم عاد لما عتوا عن أمر ربهم وغرتهم قوتهم وقالوا : من أشد منا قوة، أخذهم الله (عز وجل) بريح صرصر في أيام نحسات ، فقطع دابرهم أجمعين ، حيث يقول الحق سبحانه : " فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ "(فصلت : ١٥-١٦) .

والكبر والاستعلاء من أخص صفات إبليس الذي أبى واستكبر وكان من الكافرين ، وقال معاندًا رب العزة (عز وجل) عندما أمره بالسجود لآدم : " ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا "(الإسراء :٦١) ، وقال كما حكى القرآن الكريم على لسانه : " أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ "

(الأعراف : ١٢) ، ونسي أن ما فاخر به لو كان سبيلا للتفاخر فإنه محض مِنَّةٍ ممَّن أمره بالسجود ، فهو الذي خلقه من نار وخلق آدم من طين .

والكبر قد يكون بالجاه والسلطان والنفوذ ، وقد يكون بالمال ، وقد يكون بالعلم ، وقد يكون بالجمال ، وقد يكون بالأحساب والأنساب ، وكله مذموم ممقوت ، إذ لا فضل لعربي على أعجمي ، ولا أحمر على أسود إلا بالتقوى ، وإن أكرم الناس عند الله أتقاهم ، وإن الله (عز وجل) لا ينظر إلى صورنا ولا إلى أموالنا ، إنما ينظر إلى قلوبنا ، وجزاء الكبر الكبُّ في جهنم ولبئس المصير ، يقول الحق سبحانه : " فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ " (النحل : ٢٩) ، فكما أن الصالحين تفتح لهم أبواب الجنة جميعًا ، فإن المتكبرين يتقلبون في أبواب جهنم ، لأن الله (عز وجل) يقول : " ادخلو أبواب جهنم" ولم يقل سبحانه : ادخلوا باب جهنم .

ويقول سبحانه : " وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ " (الزمر : ٦٠) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ " (سنن ابن ماجه) ، وعن جابر (رضي الله عنه) أنّ رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم) قال: " إنّ من أحبّكم إليّ وأقربكم منّي مجلسا

يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا ، وإنّ أبغضكم إليّ وأبعدكم منّي مجلسا يوم القيامة الثّرثارون والمتشدّقون والمتفيهقون "، قالوا : يا رسول الله قد علمنا الثّرثارون والمتشدّقون ، فما المتفيهقون؟ قال : " المتكبّرون" ، وعن ثوبان (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم) : " من مات وهو بريء من الكبر ، والغلول ، والدَّيْن دخل الجنّة " (الترمذي) .

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أنّ رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم) قال: " بينما رجل يتبختر ، يمشي في برديه قد أعجبته نفسه فخسف الله به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة" (البخاري) ، وعن سلمة بن الأكوع (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم) : " لا يزال الرّجل يذهب بنفسه (أي يترفع ويتكبر) حتّى يكتب في الجبّارين فيصيبه ما أصابهم " (الترمذي) ، وعن عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) قال: " من تواضع لله تخشّعا رفعه الله يوم القيامة ، ومن تطاول تعظّما وضعه الله يوم القيامة " ، وعن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) أنّه رأى رجلا يختال في مشيته ويجرّ إزاره ، فقال : " إنّ للشّيطان إخوانا ".

وقال الأحنف بن قيس: " عجبا لابن آدم يتكبّر وقد خرج من مجرى البول مرّتين " ، وقال وهب بن منبّه : " لمّا خلق الله جنّة عدن نظر إليها فقال: أنت حرامٌ على كلّ متكبّر " ، وعن عبد الله بن هبيرة أنّ سلمان سُئل

عن السّيّئة الّتي لا تنفع معها حسنة؟ قال: " الكبر" ، وقال أحد العلماء : "التّواضع في الخَلق كلّهم حسن وفي الأغنياء أحسن ، والتّكبّر في الخَلق كلّهم قبيح وفي الفقراء أقبح " .

* * *

رمضان شهر جماع الخير

رمضان شهر الصفاء الروحي بلا منازع ، فهو شهر الإيمان ، وشهر البركات ، وشهر الرحمات ، وشهر النفحات ، من صامه إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه ، ومن قامه إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه ، فيه ليلة خير من ألف شهر هي ليلة القدر ، من قامها إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه ، ومن فطّر فيه صائمًا فله مثل أجره من غير أن يُنقَص من الصائم شيء ، ومن أدى فيه نافلة كان كمن أدى فريضة فيما سواه ، ومن أدى فيه فريضة كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه .

وهو شهر البر والصلة ، لا مجال فيه للخصام أو الخلاف أو المشاحنة ، يسارع الناس فيه إلى الخيرات بصفة عامة ، وإلى صلة الرحم والصلح بين الناس بصفة خاصة ، وفي الحديث القدسي:" أَنَا الرَّحْمَنُ ، خَلَقْتُ الرَّحِمَ ، وَشَقَقْتُ لَهَا اسْمًا مِنَ اسْمِي ، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ ، وَمَنْ قَطَعَهَا قطعته"(رواه الترمذي)، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) اقرءوا إن شئتم قول الله تعالى:" فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ "(محمد: ٢٢ـ ٢٤) .

وهو شهر الجود والسخاء ، فقد كان نبينا (صلى الله عليه وسلم) أجود

الناس وكان أجود ما يكون في رمضان ، وهو القائل : " مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلاَّ مَلَكَانِ يَنْزِلاَنِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا : اللهمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا وَيَقُولُ الآخَرُ : اللهمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا " (متفق عليه) ، ويقول الحق سبحانه وتعالى: " هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم "(محمد: ٣٨).

وهو شهر القرآن ، وشهر الذكر ، وشهر الدعاء ، وليس ذلك كله بالأمر اليسير ، إنما هو أمر لو تعلمون عظيم ، فأهل القرآن هم أهل الله وخاصته ، وبالذكر تطمئن القلوب ، يقول سبحانه : " ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ " (الرعد : ٢٨)، ومن رُزق الدعاء رُزق الإجابة ، لأن الله (عز وجل) حييٌّ كريم يستحي إذا رفع العبد يديه أن يردهما صفرًا خائبتين ، وهو القائل : "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ " (البقرة:١٨٦) .

وهو شهر العمل والإنتاج ، إذْ لا ينبغي ولا يجوز أن تتعطل حركة الحياة في هذا الشهر الكريم ، بل ينبغي أن تكون إرادة الصوم حافزًا لمزيد من

العمل ، وأن تكون مراقبة الله فيه باعثًا لمزيد من المراقبة ومن صحوة الضمير الإنساني الحي .

ولعل أهم ما نطمح إليه ، ونرجو أن نصل إليه من خلال كل ما سبق هو الصفاء مع الله ، ومع الناس ، ومع النفس ، ولن يكون ذلك إلا بالثقة الكاملة في الله ، وحسن اللجوء إليه والتوكل عليه .

والصفاء مع الناس إنما يكون بالبعد عن كل أسباب العداوة والشقاق ، والفرقة والخلاف ، والبغضاء والشحناء ، والأحقاد السوداء ، والقلوب المريضة ، والغيبة والنميمة ، والكيد والمكر ، والعمل على تعطيل الآخرين ، والانشغال عما يعنينا بما لا يعنينا .

والصفاء مع النفس يكون لصلحها مع ذاتها ومع الآخرين ، والإيمان بأن ما قدر كان ، وما كان للإنسان فهو آتيه لا محالة ، وما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوا الإنسان بشيء لم ينفعوه إلاَّ بشيء قد كتبه الله له ، ولو اجتمعوا على أن يضروه بشيء لم يضروه إلاَّ بشيء قد كتبه الله عليه ، رفعت الأقلام وجفت الصحف ، وأن يكون الإنسان في توازن بين معاشه ومعاده ، وبين أمر دينه وأمر دنياه ، وأن يكف أذى لسانه ويده عن الناس ، فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه .

وهو شهر الرحمة بلا منازع ، رحمة الله عز وجل بعباده ، ورحمة العباد بعضهم ببعض ، فالراحمون يرحمهم الله ، ومن لا يَرحم لا يُرحم ، وهو ما يتطلب أن نعمل على أن تعم هذه الرحمة الإنسانية كلها : إنسانها وحيوانها وطائرها ، لنؤكد للعالم كله أن ديننا دين رحمة وسلام لا عنف فيه ولا إرهاب ، وأن نبينا محمدًا (صلى الله عليه وسلم) هو نبي الرحمة ، ورسالته هي رسالة الرحمة ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى : " وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ " (الأنبياء : ١٠٧).

* * *

رمضان شهر الرحمة والتسامح

لا شك أن ديننا هو دين الرحمة ، دين التسامح ، دين العفو ، دين الصفح ، دين الحلم ، دين مكارم الأخلاق ، وقد علّمنا القرآن الكريم ودعانا إلى أن نصفح الصفح الجميل ، فقال سبحانه مخاطبًا نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ " (الحجر : ٨٥) ، وهو الصفح الذي لا منّ ولا عتاب ولا تأنيب معه.

ويقول (عز وجل): "خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ " (الأعراف : ١٩٩) ، ويقول سبحانه : " وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا " (الفرقان : ٦٣ ، ٦٤) ، ويقول سبحانه :" وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ " (النور : ٢٢) ، وفي الحديث النبوي الشريف : " أَنَّ رَسُولَ الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ : "يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ ، يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ " (صحيح البخاري).

وقد كان من عاداتنا وأعرافنا الجميلة أنه إذا جاء رمضان تصالح

المتخاصمون ، وتزاور الناس وتواصلوا ، وأدركوا بل أيقنوا أنه لا مجال للخصام أو الشقاق في هذا الشهر الكريم ، وإذا كان نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) يقول : " لا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاثِ لَيَالٍ ، يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا ، وَيُعْرِضُ هَذَا ، وَخَيْرُهُمُ الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلامِ" (متفق عليه). فإن الناس يدركون أن صيامهم لا يمكن أن يكون تامًا كاملاً مع وجود الشحناء أو البغضاء فيما بينهم ، ومن ثمة كانوا بفطرتهم يحرصون كل الحرص على إنهاء أي خصومات أو شحناء قبل رمضان ، وقبل السفر إلى الحج ، ويعدون ذلك من لوازم القبول ، ولم يكن الأمر يقف عند هذا الحد ، إنما كان يتجاوزه إلى التزاور والتزاور المتبادل في ساحات كرم ومآدب إفطار وسحور هذا الشهر في أجواء عائلية وإنسانية ، لا تهدف إلا إلى تعميق أواصر الرحمة والمودة بين الأهل والجيران والأصدقاء في أريحية مصرية تستحق التشجيع والتقدير .

رمضان شهر اتساع الأخلاق والنفوس لا ضيقها ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " فَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلاَ يَرْفُثْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَصْخَبْ ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ: إِنِي امْرُؤٌ صَائِمٌ ، والذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ، وَلِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا ، إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ بِفِطْرِهِ ، وَإِذَا لقي رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ " (متفق

عليه) ، أي فليتحصن بصيامه وليحافظ عليه ، وألا ينساق إلى ما يتعرض له من استفزاز ، فالصائم الحق هو الذي يملك نفسه عند الغضب ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " ليس الشديد بِالصُّرَعَةِ ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب " (صحيح البخاري) ، فما نراه من تصرفات عنف شاذة إنما هو غريب على ديننا وثقافتنا وهويتنا الحضارية ، ويزداد الأمر استنكارًا إذا وقع هذا العنف في هذا الشهر الفضيل ، ويكون الاستنكار أشد حدة إذا كان من إنسان محسوب شكلا على الصائمين والقائمين ، إذ لا ينبغي أن نفهم الصيام أو نقصره على مجرد الامتناع عن الطعام والشراب ، إنما هو تهذيب للطباع ، وترقيق للمشاعر ، وتقويم للسلوك المعرفي ، وتدريب على قوة التحمل ، وصولا إلى تحقيق أعلى الأهداف ، وهو تحقيق التقوى والمراقبة التامين ، حيث يقول سبحانه وتعالى : " يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ " (البقرة : ١٨٣) .

وعلى الجملة فقد دعا الإسلام إلى السماحة ، واليسر ، والتيسير ، والرحمة ، والرفق ، فقال نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " رَحِمَ الله عَبْدًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ سَمْحًا إِذَا اشْتَرَى سَمْحًا إِذَا اقْتَضَى" (صحيح البخاري)، وقال (صلى الله عليه وسلم):" دَخَلَ رَجُلٌ الْجَنَّةَ بِسَمَاحَتِهِ قَاضِيًا وَمُتَقَاضِيًا"

(مسند أحمد) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " إِنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِي شَيءٍ إِلاَّ زَانَهُ وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيءٍ إِلاَّ شَانَهُ "(صحيح مسلم) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) :" اللهمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ " (صحيح مسلم) .

فما أحوجنا في هذا الشهر الكريم إلى مراجعة النفس ، إلى التسامح والتصالح مع أنفسنا ، مع أهلينا ، مع أزواجنا ، مع أبنائنا ، مع أشقائنا وشقيقاتنا ، مع أعمامنا وعماتنا ، وبني أعمامنا ، وبني عماتنا ، وأخوالنا وخالاتنا ، وبني أخوالنا ، وبني خالاتنا ، وجيراننا ، وأصدقائنا ، وزملائنا ، وسائر المتعاملين معنا ، لنفوز ونسعد في عاجلنا وآجلنا بإذن الله تعالى .

* * *

رمضان شهر الانتصارات

رمضان شهر الانتصارات لا ريب ، ففيه كانت أول غزوة في الإسلام ، وفيه كان الفتح الأعظم فتح مكة ، وفيه كان انتصار المسلمين في عين جالوت ، وفيه أعظم انتصارات عصرنا الحديث نصر العاشر من رمضان ، ولنا في ذلك وقفات :

الوقفة الأولى : مع غزوة بدر بعد أن أذن الله (عز وجل) للمستضعفين المظلومين من أصحاب سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) أن يدافعوا عن أنفسهم ، فقال سبحانه وتعالى : " أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ " (الحج: ٣٩)، فنصرهم من ضعف وقلة ، وأعزهم بعد أن كانوا أذلة مستضعفين ، فقال سبحانه :" وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ ۚ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ " (آل عمران: ١٢٣ـ ١٢٦)، فهو الذي أنزل الملائكة ، وهو الذي ثبتهم ، وهو الذي ألقى

في قلوب الذين كفروا الرعب ، حيث يقول سبحانه : " إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ "(الأنفال: ١٢).

فما كان لهذه القلة من المسلمين أن تقتل وتهزم هذه الكثرة من المشركين لولا تثبيت الله (عز وجل) للمسلمين ، ونصره إياهم على المشركين لبغيهم وظلمهم وطغيانهم ، ذلك أن جيش المشركين هو الذي خرج إلى المدينة متجبرًا مختالًا يريد استئصال شأفة محمد (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه ، وكان أهل المدينة قد بايعوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على حمايته داخل المدينة مما يحمون منه أنفسهم وأزواجهم وأبناءهم ، والنبي (صلى الله عليه وسلم) يقول : "أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ" فتكلم جماعة من المهاجرين فأحسنوا ، وكلما تكلم واحد منهم يقول النبي (صلى الله عليه وسلم) : "أشيروا علي أيها الناس" ، حتى قَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ : وَالله لَكَأَنَّك تُرِيدُنَا يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ : أَجَلْ ، قَالَ : فَقَدْ آمَنّا بِك وَصَدّقْنَاك ، وَشَهِدْنَا أَنّ مَا جِئْتَ بِهِ هُوَ الْحَقّ ، وَأَعْطَيْنَاك عَلَى ذَلِكَ عُهُودَنَا وَمَوَاثِيقَنَا ، عَلَى السّمْعِ وَالطّاعَةِ ، فَامْضِ يَا رَسُولَ الله لِمَا أَرَدْتَ فَنَحْنُ مَعَك ، فَوَالّذِي بَعَثَك بِالْحَقّ لَوْ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخُضْتَهُ لخضْنَاهُ مَعَك ، مَا تَخَلّفَ مِنّا رَجُلٌ

وَاحِدٌ، وَمَا نَكْرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوّنَا غَدًا ، إنّا لَصُبُرٌ فِي الْحَرْبِ صُدُقٌ فِي اللّقَاءِ، لَعَلّ الله يُرِيك مِنّا مَا تَقَرّ بِهِ عَيْنُك ، فَسِرْ بِنَا عَلَى بَرَكَةِ الله ، ثُمّ قَامَ الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله امْضِ لِمَا أَرَاك الله فَنَحْنُ مَعَك ، وَالله لَا نَقُولُ لَك كَمَا قَالَتْ بَنُو إسْرَائِيلَ لِمُوسَى : " اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبّكَ فَقَاتِلَا إنّا هَهُنَا قَاعِدُونَ " وَلَكِنْ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبّك فَقَاتِلَا إنّا مَعَكُمَا مُقَاتِلُونَ ، فَوَالّذِي بَعَثَك بِالْحَقّ لَوْ سِرْت بِنَا إلَى بِرْكِ الْغِمَادِ لَجَالَدْنَا مَعَك مِنْ دُونِهِ حَتّى تَبْلُغَهُ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله (صَلّى الله عَلَيْهِ وَسَلّمَ) خَيْرًا ، وَدَعَا لَهُ " (السيرة النبوية لابن هشام) .

الوقفة الثانية : عندما اختار النبي (صلى الله عليه وسلم) منزلاً لأصحابه قال له الحباب بْن الْمُنْذِرِ : يَا رَسُولَ الله أَرَأَيْتَ هَذَا الْمَنْزِلَ أَمَنْزِلًا أَنْزَلَكَهُ الله لَيْسَ لَنَا أَنْ نَتَقَدّمَهُ وَلَا نَتَأَخّرَ عَنْهُ ، أَمْ هُوَ الرّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ؟ قَالَ : بَلْ هُوَ الرّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ ؟ فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله فَإِنّ هَذَا لَيْسَ بِمَنْزِلٍ فَانْهَضْ بِالنّاسِ حَتّى نَأْتِيَ أَدْنَى مَاءٍ مِنْ الْقَوْمِ ، فَنَنْزِلَهُ ثُمّ نُغَوّرُ مَا وَرَاءَهُ مِنْ الْقُلُبِ ، ثُمّ نَبْنِي عَلَيْهِ حَوْضًا فَنَمْلَؤُهُ مَاءً ، ثُمّ نُقَاتِلُ الْقَوْمَ فَنَشْرَبُ وَلَا يَشْرَبُونَ ، فَقَالَ رَسُولُ الله (صَلّى الله عَلَيْهِ وَسَلّمَ) : " لَقَدْ أَشَرْتَ بِالرّأْيِ" (الجامع الصحيح)، وذلك إعلاءً لمبدأ الشورى في الإسلام. على أن هذه الغزوة كانت كما نرى دفاعية يدافع المسلمون فيها عن أنفسهم

وأعراضهم وأموالهم ومدينتهم ، فلم يكن خروجهم للقتال اعتداءً إنما كان لرد العدوان .

الوقفة الثالثة : مع فتح مكة ، فقد جاء نتيجة لغدر قريش وتبييتها مع حلفائها من بني بكر لخزاعة حلفاء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، حيث بيتوهم بليل وقتلوهم رُكَّعًا وسُجَّدًا ، ومع ذلك لما قال أحد الناس يوم فتح مكة : "اليَوْمَ يَوْمُ المَلْحَمَةِ ، اليَوْمَ تُسْتَحَلُّ الكَعْبَةُ "، قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : " اليوم يوم المرحمة ، اليوم يعظم الله الكعبة " وقال (صلى الله عليه وسلم) قولته المشهورة : " يا أهل مكة ما تظنون أني فاعل بكم ؟ قالوا أخ كريم ، وابن أخ كريم ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : "اذهبوا فأنتم الطلقاء" (السيرة النبوية لابن هشام) .

الوقفة الرابعة : يوم العاشر من رمضان ، فقد كان يوم الدفاع عن الأرض والعرض والكرامة ، ألم نقل : إن القتال في الإسلام لم يكن يومًا بغيًا أو عدوانًا ، إنما هي حرب دفاعية عن الأرض ، والعرض ، والوجود .

أما النصر الأكبر والأعظم في هذا الشهر الكريم فهو الانتصار على النفس وشهواتها وجبروتها وطغيانها ، وقد قالوا : إن الإنسان لا يستطيع أن يواجه عدوًّا وعدوه الذي بين جنبيه قاهر له ، متحكم فيه ، متغلب عليه.

* * *

بين حج النافلة وقضاء حوائج الناس

للأسف الشديد تقف الرؤية الفقهية عند بعض المتصدرين للعمل الدعوي أو المنتسبين إليه عند حدود فقه الأحكام على سبيل التلقين أو التلقي دون غوص أو إدراك لفقه المقاصد أو الأولويات أو الواقع أو المتاح ؛ مما يجعل الغاية الأسمى لمقاصد التشريع غير واضحة عند بعضهم كما يجعل فريقًا آخر منفصلاً عن حاضره وواقعه والعالم الذي يعيش فيه والظروف التي تحيط به .

أولاً : حج الفريضة :

لاشك أن الحج أحد أركان الإسلام الخمسة التي لا يكتمل إسلام المرء المستطيع بدنيًّا وماليًّا إلا بها ، لقوله تعالى : " وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا " (آل عمران: ٩٧) ، وعن أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب (رضي الله عنهما) قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : " بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَالحَجِّ ، وَصَوْمِ رَمَضَان" (متفق عليه) ، فمن استطاع الحج ولم يحج حج الفريضة فليعجل.

غير أن رحمة الله (عزّ وجلّ) بعباده ربطت الحج بالاستطاعة البدنية والمالية ، فمن كانت نيته قائمة على الحج وقعد به عجزه البدني أو المالي بلّغه الله درجة الحجيج بنيته الصادقة ، وقد جعل الله للضعفاء وغير القادرين

في الذكر والصلاة والقيام وسائر القربات والنوافل ما يسمو بهم إلى درجة الحجيج وأسمى ، ما صدقت نياتهم وأخلصوا لله فيما مكنهم منه.

وأن الله (عزّ وجلّ) جعل فريضة الحج مرة واحدة ، وعندما قال نبينا (صلى الله عليه وسلم) :" أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ، فَحُجُّوا"، فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ الله؟ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا، فَقَالَ رَسُولُ الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): " لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ لَوَجَبَتْ، وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ "، ثُمَّ قَالَ : " ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ "(صحيح مسلم).

وقد اقتضت حكمة الله (عزّ وجلّ) أن يكون الحج آخر أركان الإسلام فرضًا على المسلمين ، فحج أبو بكر بالناس في السنة التاسعة من الهجرة ؛ لأن يوم عرفة لم يكن في يومه الذي قدره الله فيه بسبب زيادة قريش في عدد أيام السنة، حيث كانوا يجعلونها اثنى عشر شهرًا واثني عشر يومًا فكان الحج يقع في ذي الحجة والمحرم وصفر ورمضان وشوال وفق دورة السنين والأيام .

وفى العام العاشر للهجرة كان يوم عرفة قد وافق اليوم الذي قدره الله فيه، فقال نبينا (صلى الله عليه وسلم) : "إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ

خَلَقَ الله السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ" (متفق عليه) أي: أن الزمان قد أخذ دورته وعاد إلى هيئته التي خلقه الله عليها ، فحج نبينا (صلى الله عليه وسلم) حجة واحدة هي حجة الوداع .

وإذا كان بعض الناس يذكرنا بحديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم): " تَابِعُوا بَيْنَ الحَجِّ وَالعُمْرَةِ، فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ، وَالذَّهَبِ، وَالفِضَّةِ" (سنن الترمذي وهو صحيح) فإن ذلك مرتبط بحال الأمة ويسارها ووضع اقتصادها ، فإذا كان الاقتصاد الوطني قويًا متينًا ليس في أبناء الوطن جائع لا يجد ما يسد جوعته ، أو عار لا يجد ما يستر عورته ، أو مريض لا يجد ما يتداوى به، فليحج الناس ما شاءوا أو ليعتمروا ما شاءوا ".

ثانيًا: حج النافلة :

ولكن إذا كان في الأمة أو الوطن فقير لا يكاد يجد قوت يومه إلا بمشقة شديدة ، ومريض لا يكاد يجد ما يتداوى به إلا بشق الأنفس ، وشاب لا يجد ما يعف به نفسه ، فنقول إن فقه الأولويات يقتضى أن نسد أولاً جوعة كل جائع ، ونستر عورة كل عارٍ ، ونعالج كل مريض ، وأن نوفر ما يحقق للناس حياة آدمية كريمة من المطعم والملبس والمسكن والدواء والتعليم والبنية التحتية كالطرق والكباري ، والمياه ، والكهرباء ، والصرف

الصحي ، بما يحفظ لهم كرامتهم ويوفر لهم سبل الرقي والتقدم ، فكل ذلك مقدم على حج النافلة وعمرة النافلة .

فأمة لا تملك كامل قوتها ، أو كامل دوائها ، أو وسائل أمنها من سلاح وعتاد أولى بها أن تتوجه إلى سدّ هذه الجوانب قبل التفكير في حج النافلة وعمرة النافلة .

كما أننا نلمس أثر الزحام الشديد في الحج على راحة الحجاج وسلامتهم، فالحكمة والفقه يقتضيان أن يترك من أدى الفريضة الفرصة لغيره ممن لم يؤدها ، فدرء المفسدة المتوقعة من كثرة الزحام مقدم على جلب المنفعة المترتبة على النوافل .

العمل المتعدي النافع مقدم على العمل القاصر النفع:

ولاشك أن نفع قضاء الحوائج متسع ومتعدد ، وقد يكون صدقة جارية في إصلاح طريق أو بناء جسر أو مشفى أو مدرسة ، ونبينا (صلى الله عليه وسلم) يقول: "إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ "(صحيح مسلم)، ويقول (صلى الله عليه وسلم) :" إِنَّ لله خَلْقًا خَلَقَهُمْ لِحَوَائِجِ النَّاسِ يَفْزَعُ النَّاسُ إِلَيْهِمْ فِي حَوَائِجِهِمْ أُولَئِكَ هُمُ الْآمِنُونَ مِنْ عَذَابِ الله (عَزَّ وَجَلَّ)" (حلية الأولياء)، ويقول (صلى الله عليه وسلم) :" مَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ

كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ أَخَاهُ الْمُؤْمِنَ فِي الدُّنْيَا سَتَرَهُ اللهُ فِي الْآخِرَةِ وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ" (سنن النسائي وهو صحيح) ، فهذا كله نفع متعدد أوسع وأرحب من حج النافلة وعمرة النافلة.

بين الحج النافلة وفروض الكفايات :

وربما لا يدرك بعض الناس من علم فروض الكفايات سوى صلاة الجنازة ، وردّ السلام ، وتشميت العاطس .. ونحو ذلك .

غير أننا نوضح أن فروض الكفايات تشمل إطعام كل جائع ، وكساء كل عار ، ومداواة كل مريض ، كما تشمل القيام بالمصالح الأساسية للمجتمع التي لا تستقر حياة الناس إلا بها ، والإسلام علمنا التراحم والتكافل ، وقد قال نبينا (صلى الله عليه وسلم) : "مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ، فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهْرَ لَهُ ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ ، فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ"، قَالَ الراوي : فَذَكَرَ النبي (صلى الله عليه وسلم) مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَ حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لَا حَقَّ لِأَحَدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ " (صحيح مسلم).

ولاشك أن الوفاء بهذه الاحتياجات واجب كفائي إذا قام به بعض المسلمين سقط الإثم عن الجميع ، وإن لم يقم به أحد أثم الجميع .. والواجب الكفائي مقدم بلا شك على النوافل حتى يُقضى ، ثم إنه مسئولية

تضامنية بين أبناء المجتمع جميعًا من القادرين على سد الثغرات ورفع الكروب عن الناس والوطن .

شكر النعمة:

وهنا يبرز الدور الوطني للأغنياء في خدمة وطنهم ، والوفاء بحق النعمة التي منحهم الله إياها ، وهذا لا يكون إلا بالشكر ، يقول الحق سبحانه : "وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ " (إبراهيم:٧) ، والشكر لا يكون بالكلام وتقبيل اليد ظاهرًا وباطنًا ، إنما يكون بالعمل يقول تعالى : "اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا" (سبأ : ١٣) وشكر النعمة يكون من جنسها ، فشكر المال يكون بإنفاقه في سبيل الله (عزّ وجلّ) ، وسائر وجوه البر وقضاء الحوائج .

وقد قيل لبشر الحافي إن فلانًا الغني مالًا كثر صومه وصلاته ، فقال : إنه لمسكين ، لقد ترك حاله ودخل في حال غيره ، إن واجبه إطعام الطعام وبناء الخيام ، فهذا أفضل من تجويعه لنفسه ، ومن جمعه للدنيا ومنعة للفقراء . وقد عاب الإمام أبو حامد الغزالي على بعض المتدينين من الأغنياء الذين يحرصون على إنفاق المال في الحج بعد الحج والعمرة بعد العمرة ولا يوفون بحق الفقراء وأصحاب الحاجات ، فربما تركوا جيرانهم جياعًا لا طعام لهم وذهبوا بنفقاتهم الواسعة لإشباع رغباتهم النفسية في كثرة الحج والعمرة غير

فاهمين لمقاصد الإسلام الكبرى ، وروى أن رجلًا جاء يودع بشر بن الحارث وقال : قد عزمت على الحج فتأمرني بشيء ؟ فقال له: كم أعددت للنفقة ؟ فقال : ألفي درهم. قال بشـر : فأي شيء تبتغى بحجك ؟ تزهدًا أو اشتياقًا إلى البيت وابتغاء مرضاة الله ؟ قال : ابتغاء مرضاة الله ، قال نعم : قال بشر: فإن أصبت مرضاة الله تعالى ، وأنت في منزلك وتنفق ألفي درهم ، وتكون على يقين من مرضاة الله تعالى : أتفعل ذلك ؟ قال: نعم. قال : اذهب فأعطها لعشرة : مديون يقضى دينه ، وفقير يرم شعثه ، ومعيل يغنى عياله ، ومربي يتيم يفرحه ، وإن قوى قلبك تعطيها واحدًا فأفعل ، فإن إدخالك السرور على قلب المسلم ، وإغاثة اللهفان ، وكشف الضر ، وإعانة الضعيف ... أفضل من مائة حجة بعد حجة الإسلام! قم فأخرجها كما أمرناك ، وإلا فقل لنا ما في قلبك؟. فقال: يا أبا نصر ! سفري أقوى في قلبي. فتبسم بشر رحمه الله ، وأقبل عليه ، وقال له: المال إذا جمع من وسخ التجارات والشبهات اقتضت النفس أن تقضى به وطرًا ، فأظهرت الأعمال الصالحات، وقد آل الله على نفسه أن لا يقبل إلا عمل المتقين.

* * *

وقفة مع شعيرة الحج

تقوم شعيرة الحج على التضحية بالمال والجهد والبدن ، إذ يبدأ الإنسان عند خروجه من منزله بدعاء السفر : اللهم إنك أنت الصاحب في السفر والخليفة في المال والأهل والولد ، فيلقي حموله وهمومه وأحواله كلها إلى أمر ربه (عز وجل) ، مدركا أن الأمر كله لله ، ولو صدقت نية الحاج فهو في معية الله وفي ولايته ، حيث يقول الحق سبحانه :"نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ" (فصلت: ٣١) ، ومن تولاه الله كفاه وأغناه وأراح نفسه وقلبه ، يقول سبحانه : " وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ " (الطلاق : ٢ ، ٣) ، ويقول سبحانه: "وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا " (الطلاق : ٤) ، ويقول سبحانه: "وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا "(الطلاق: ٥)، ويقول سبحانه:" مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا" (فاطر: ٢) ، ويقول سبحانه:" أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ" (الزمر: ٣٦).

ثم يتجرد الإنسان من الدنيا وعلائقها من مال وعتاد وولد وسلطان محرمًا بلباس متجردة هي أشبه ما يكون بتلك الأكفان التي يلقى بها ربه،

وعلى العاقل أن يستحضر أن هذا اليوم آت لا محالة ، وكل طويل في حساب الزمن قصير، والسعيد من وعظ بغيره ، والشقي من وعظ بنفسه ، والعاقل من يبيع دنياه بآخرته ، و الأحمق من يبيع آخرته بشيء من متاع الدنيا الزائل، وفي هذا نُذَكِّر بقول القائل: يا ابن آدم أنت في حاجة إلى نصيبك من الدنيا لكنك إلى نصيبك من الآخرة أحوج ، فإن أنت بدأت بنصيبك من الدنيا ضيعت نصيبك من الآخرة ، وكنت في نصيبك من الدنيا على خطر ، وإن أنت بدأت بنصيبك من الآخرة مرَّ بنصيبك من الدنيا فانتظمه انتظامًا فأصلح الله لك أمر الدنيا والآخرة ، ويقول نبينا (صلي الله عليه وسلم) : "مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ فَرَّقَ الله شَمْلَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يُؤْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا ، إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ ، ومَنْ كَانَتِ الْآخِرَةُ هَمَّهُ ، جَمَعَ الله شَمْلَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَة "(المعجم الكبير للطبراني).

وعندما يتعلق الإنسان بأستار الكعبة يدرك بلا شك أنه يأوي إلى ركن شديد ورب عظيم رحيم ، حيث الأمل في رحمة الله ورضوانه ، في كشف الكرب ، وجلاء الظلم ، وفتح أبواب الرحمة في الدنيا والآخرة ، وذلك عند بيت الله المحرم ، حيث أمر الله عز وجل نبيه وخليله إبراهيم (عليه السلام) أن يؤذن في الناس بالحج ، واستجاب إبراهيم (عليه السلام)، بلا تفكير ولا تردد مع أن الأرض آنذاك كانت صحراء قاحلة لا إنس ولا بشر، لكن

إبراهيم (عليه السلام) كان يدرك أن الخير في طاعة الله (عز وجل) ، وأن ما عليه هو تنفيذ الأمر الإلهي، وأن الاستجابة أو عدم الاستجابة لندائه هي ليست من حوله ولا قوته، إنما هي من مشيئة الله وإرادته " إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ " (القصص: ٥٦)، أذّن يـا إبراهيم وعلى الله البلاغ ، فأذن إبراهيم وبلغ نداؤه العالمين، فأتوا من كل حدب وصوب رجالا وركبانا من كل فج عميق يرجون رحمة ربهم ويخافون عقابه ، يحدوهم الأمل في القبول والغفران ، وأن يصلح الله عز وجل أحوال البلاد والعباد ، وأن ييسر لمصر وأهلها سبل الرشاد والأمن والأمان والاستقرار .

ثم يأتي السعي بعد الطواف ليدرك الإنسان ما كان من أم إسماعيل في أخذها بالأسباب ، وليت المسلمين جميعا حجاجا وغير حجاج يستفيدون من هذه الدروس في الأخذ بالأسباب ، ويدركون أن الله (عز وجل) لا يضيع أجر المجتهدين. ويأتي السعي بين الصفا والمروة في إطار رمزية كبرى هي السعي والعمل لنصرة دين الله من جهة ، وإعمار الكون لصالح البلاد والعباد من جهة أخرى .

ويأتي تقديم الهدي ونحـر الأضاحي لتخليص النفس من علائـق الشح والبخل، في رمزية كبرى للتضحية في سبيل الله ، وفي سبيل الوطن ، وفي

قضاء حوائج الناس من إطعام الجائع وكساء العاري وإغاثة الملهوف ، وإسكان الشباب ، وبناء المجتمعات بتوفيرها ما تحتاجه من مقومـات لا بـد منها في مجالات الصحة ، والتعليم ، والطاقة ، وغير ذلك.

أما الرجم فإشارة إلى العداء المستحكم بين الشيطان وبني الإنسان ، ليدرك الإنسان في كل زمان ومكان أن الشيطان عدو مبين ، متربص بالإنسان ، قاعد له على كل صراط مستقيم يعمل على ضلاله وغوايته ، يأتيه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وشماله إلا من رحم رب العالمين، وحفظه من غواية الغاوين ، وهنا يحاول الشيطان أن يأتيك من أي طريق يستطيع به النفوذ إليك ، يقول الإمام الأوزاعي (رحمه الله) : ما أمر الله (عز وجل) في الإسـلام بأمر إلا حاول الشيطـان أن يأتيــك من إحدى جهتين لا يبـــالي أيهما أصاب الإفراط أو التفريط، الغلو أو التقصير .

فالعاقل الحكيم من يفوِّت على الشيطان الرجيم كلتا الفرصتين ، فلا يميل أي الميل إلى اليمين أو اليسار ، إنما يقف وفق منهج الإسلام السمح في منطقة الوسطية والاعتدال ، يقولون: لكل شيء طرفان ووسط ، فإن أنت أمسكت بأحد الطرفين مال الآخر، وإن أنت أمسكت بالوسط استقام لك الطرفان .

* * *

□

التوبة النصـوح

التوبة هي ترك الذنب ، والندم عليه ، والعزم على عدم العود إليه ، واستدراك ما أمكن من أداء الحقوق .

والتوبة التامة هي التي تجمع بين ترك القبيح وتحري الجميل ، أما النصوح فهي التي تصل بحال القلب إلى كره المعصية ، فلا تخطر للإنسان على بال من شدة كرهه لها ، ولا ترد له على خاطر أصلا ، وإن عرض له منها عارض نفر منها نفور الفارِّ من النار.

وقال بعضهم : يقال لمن خاف العقاب صاحب توبة ، ولمن يتوب طمعًا في الثواب صاحب إنابة ، ولمن يتوب لمحض مراعاة أمر الله صاحب أوبة ، والأوبة هي صفة الأنبياء والمرسلين وعباد الله المخلصين ، حيث يقول الحق سبحانه عن سيدنا أيوب عليه السلام : "إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ" (ص : ٤٤) .

على أننا نؤكد على أمور :

١- أن التوبة النصوح لا تكون فقط بالإقلاع عن المعاصي أو العزم على عدم العودة إلى ارتكابها ، إنما تكون أيضًا بالندم على ما كان من تقصير في الفرائض والطاعات ، والعمل على استدراك ما أمكن من

ذلك ، كصلاة الفوائت ، وقضاء الصيام ونحو ذلك ، مع الاجتهاد في النوافل من باب قوله تعالى : " إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ " (هود : ١١٤) ، وقد قال بعض أهل العلم : إن التوبة من ترك المأمور أولى من التوبة من فعل المحظور ، لغفلة الناس غالبًا عن النوع الأول واستحضارهم الدائم للنوع الثاني .

٢- أن حقوق العباد لا تسقط بمجرد الندم والاستغفار ، إنما لا بد فيها من الاجتهاد في رد حقوق العباد ، فقد حذرنا النبي (صلى الله عليه وسلم) من أخذ حقوق العباد بدون حق، فقال (صلى الله عليه وسلم) لأصحابه يومًا :" أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ ، فَقَالَ:" إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا ، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ" (رواه مسلم) ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : " مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَلَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ إِنْ كَانَ لَهُ

عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ"(رواه البخاري) ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : " لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقْتَصَّ لِلشَّاةِ الْجَمَّاءِ مِنْ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ تَنْطَحُهَا " (مسند أحمد).

٣- أن التوبة الصادقة النصوح تورث محبة الله (عزّ وجلّ) حيث يقول سبحانه في كتابه العزيز :" إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ" (البقرة : ٢٢٢) ، وهي سبيل تكفير الذنوب ، حيث يقول سبحانه : " يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ " (التحريم : ٨) ، وبالتوبة النصوح يبدل الله سيئات العبد التائب إلى حسنات ، حيث يقول الحق سبحانه : " إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا "(الفرقان:٧٠).

٤- أن الله (عز وجل) قد فتح باب التوبة واسعًا أمام عباده فقال

سبحانه : " قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ " (الزمر : ٥٣) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "إنّ الله- عزّ وجلّ- يبسط يده باللّيل ليتوب مسيء النّهار، ويبسط يده بالنّهار ليتوب مسيء اللّيل، حتّى تطلع الشّمس من مغربها " (رواه مسلم) ، وعن عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم) : " لله أَفْرحُ بِتوْبةِ عبدِه مِنْ رجُلٍ نَزَل مَنْزِلاً وبه مَهْلَكَةٌ، وَمَعهُ رَاحِلتُهُ، عَلَيْها طَعامُهُ وَشَرابُهُ، فَوَضعَ رْأسَهُ فنام نَوْمَةً، فاسْتَيقظَ وقدْ ذَهَبتْ راحلتُهُ، حتّى اشْتَدّ عليهِ الحَرُّ والعَطشُ أوْ ما شاء الله، قال: أَرجعُ إلى مكاني، فرجعَ فنامَ نوْمةً، ثم رفع رأسه، فإذا راحلتُه عِنده " (صحيح البخاري) .

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النّبيّ (صلّى الله عليه وسلّم) فيما يرويه عن ربّه- عزّ وجلّ- قال: " أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: اللهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ ، فَقَالَ : أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي ، فَقَالَ

تَبَارَكَ وَتَعَالَى : أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا ، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ ، اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ" (صحيح مسلم) .

٥- أن التوبة تفتح باب الخير في الدنيا والآخرة ، حيث يقول سبحانه على لسان سيدنا نوح (عليه السلام) : " فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا "(نوح : ١٠ - ١٢)، ويقول تعالى على لسان سيدنا شعيب (عليه السلام) : " وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ " (هود : ٥٢) .

٦- أن التوبة إنما هي تَعبُّدٌ وقربة إلى الله (عز وجل) وإن لم تسبق أو تقترن بذنب ، فهي زيادة تقرب وخضوع وتذلل لله (عز وجل) ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ " (رواه البخاري) .

* * *

فهـرس الموضـوعـات

م	الموضوع	الصفحة
	مقـدمـــــة	٥
١.	أركـــان الإســـلام وحقيقته	٧
٢.	حقيقة الإيمان وعلاماته	١٣
٣.	العلـــم النافـــع	١٨
٤.	الدعاء سلاح المؤمن	٢١
٥.	حقيقـــة الزهـــد	٢٦
٦.	قيمـــــة الإيثـــــار	٣٠
٧.	قيمـــة العـــــدل	٣٤
٨.	الحيـــاء خيـــر كلـــه	٣٨
٩.	الصبر الجميل	٤٢
١٠.	الحق والواجب	٤٧
١١.	حق الوالدين	٥١
١٢.	حق الجوار	٥٥
١٣.	حـال أهـل الجنـة	٥٩
١٤.	محمد (صلى الله عليه وسلم) نبي الرحمة	٦٤

١٥.	المسابقة في الخيرات	٦٨
١٦.	معاملة العامل والأجـير	٧١
١٧.	الرحمـة بالحيوان والجمـاد	٧٥
١٨.	جـزاء المتقـين	٧٩
١٩.	معا لمجتمع نظيف متحضـر	٨٤
٢٠.	أنواع النفاق وعلاماته	٨٩
٢١.	تعظيم ثواب الصدقة	٩٣
٢٢.	إياكم وهجر القرآن	٩٧
٢٣.	نعمة الأمن والاستقرار	١٠١
٢٤.	التفـــاؤل والأمل	١٠٧
٢٥.	حســن الخــاتمـــة	١١٣
٢٦.	حق الطريق والمرافق العامة	١١٦
٢٧.	سلامة الصدر	١٢٠
٢٨.	الــبر والوفــاء	١٢٥
٢٩.	إفشاء السلام منهج حياة	١٣١
٣٠.	الجمال والبهجة والذوق السليم	١٣٤
٣١.	حديث القرآن عن محمد (صلى الله عليه وسلم)	١٣٨

٣٢.	الخوف من الله	١٤٤
٣٣.	نعمة الماء	١٥٤
٣٤.	عناية الإسلام بالأيتام	١٦٠
٣٥.	حظ النفس من الدنيا	١٦٥
٣٦.	الظلم ظلمات	١٦٨
٣٧.	سلوك وسلوك	١٧١
٣٨.	قيمة الوقت	١٧٦
٣٩.	الفقه والفهم	١٨٠
٤٠.	القيم الإنسانية	١٨٤
٤١.	حبس الحقوق	١٨٩
٤٢.	الدنيا والآخرة	١٩٣
٤٣.	حق المرأة في الميراث والحياة الكريمة	١٩٦
٤٤.	حقيقة الخشية	٢٠٠
٤٥.	البغي وسوء العاقبة	٢٠٤
٤٦.	أدب الحياة الخاصة	٢٠٨
٤٧.	السلام النفسي	٢١١
٤٨.	الصديق الذي نبحث عنه	٢١٥

٤٩.	مرضاة الله ومرضاة الخلق	٢١٩
٥٠.	مفهوم الاحـترام	٢٢٣
٥١.	أزمة الأخلاق والقيم	٢٢٧
٥٢.	تأملات في آية الدَّيْنِ	٢٣٠
٥٣.	الجمال الحقيقي والصداق الحقيقي	٢٣٣
٥٤.	الخسران المبين	٢٣٦
٥٥.	عاقبة الشذوذ والانحراف	٢٤٠
٥٦.	المواجهة الشاملة للمخدرات	٢٤٦
٥٧.	الاستعلاء في الأرض	٢٤٩
٥٨.	رمضان شهر جماع الخير	٢٥٤
٥٩.	رمضان شهر الرحمة والتسامح	٢٥٨
٦٠.	رمضان شهر الانتصارات	٢٦٢
٦١.	بين حج النافلة وقضاء حوائج الناس	٢٦٦
٦٢.	وقفة مع شعيرة الحج	٢٧٣
٦٣.	التوبة النصوح	٢٧٧
٦٤.	فهرس الموضوعات	٢٨٢

رقم الإيداع :